أطيـــافٌ جَامِحَـــة

أطياف جامحة

عثمـــان أحمـد حســـــن

قصص

ISBN 9789776597559

Deposit number: 4487/2021

© Willows House 2021

الطبعــة الأولـــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

عثمـــان أحمـــد حســـن

أطيـــافٌ جَامِحَـــة

مجموعـــة قصصيَّـــة

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس
2021

مونالیـــزا حبیبتـــي

منـذ صغَـري وأنـا مفتـونٌ بالرسـمِ، أرسـم أي شيء عـلي أي شيء. وأنـا يافـع، زينـت جـدران بيتنـا بالرسـم والتصاويـرِ، زهـور وأشـجار ووحـوش، وأشـياء لَـمْ يعـرِف أحـد مـن النـاس كنههـا.

في مراحـلي الدراسـية المختَلفَـة، كان مسـاري واضحـاً: مدرسـة الفنـون، ولا شيء سـواها. أصبحـت مـن المشـاهير بفضـل أنامـلي وفرشـاتي وألـوواني. حملـت لوحـاتي لأطـراف الدنيـا القصيّـة وحملتنـي لوحـاتي لصحبـة المشـاهير والأثريـاء وذوي الجـاه والسـلطان. طفـت متاحـف العـالم أروي ظـمأ المعرفـة وأسـتزيد مـن تقنيـات الرسـم وفنـون التلويـن. في مسـيرة ثلاثـين عامـاً وأنـا أحـترف الرسـم، اسـتوقفتني لوحتـان: الموناليـزا، والطفـل البـاكي.

في بعـض جـولاتي حصلـت عـلى نسـختين بالحجـمِ الطبيعـي للوحتـين، أصبحتـا زينـة داري ومحـط اهتمامـي ومثـار إعجـاب زواري الكُّـثر. ثـم عـثرت عـلى كتـاب عـن أسرار اللوحـات، قـرأت الكتـاب بضـع مـرات، مـا فيـه أقـرب للخيـالِ والهذيـان. مـن خطرفاتـه أنَّ ليونـاردو دافنـشي كان يحـب الموناليـزا حبـاً

مَلَـك عليـه فـؤاده، ولكـنَّ الفاتنـة فضَّلـت عليـه صديقـه فرانشيسـكو جيراردينـي الـثرّي ذا المكانـة والصولـة، وبدافـع الغـيرة الحاقـدة استعان دافنـشي بسـاحرةٍ مـن أرض كـوش سـجنتها في اللوحـة، وأنهـا تتحـرر مـن اللوحـةِ بعـد مـضيّ عـدد مـن السـنوات لتعيـش مـدة زمنيـة، ولسـت أدري لمـاذا كان الرقـمان المعنيـان، أعنـي عـدد السـنوات المُقَـدّر والمـدة التـي ستعيشـها مطموسـان في نسـخةِ الكتـاب التـي بحـوزتي. تقـول أسـطورة الكتـاب إن الموناليـزا سـتتحرر مـن اللوحـة السـجن وتخـرج إمـرأة مـن لحـم ودم تعيـش حياتهـا ثـم تحـترق الـدار التـي فيهـا اللوحـة ومـن رمـاد الـدار تنهـض الموناليـزا وتعـود لإطـار اللوحـة، سـجنها الأبـدي. لكـن الكتـاب يمـضي ليقـول إنـه قـد تـم تقليـد ونسـخ وتزويـر لوحـة الموناليـزا آلآف المـرات تقليـداً ونسـخاً وتزويـراً متقنـاً وأنّ اللوحـة الأصليـة ضائعـة ولا يعـرف لهـا مـكان ولا مالـك وإن سـحر السـاحرة يتحقـق فقـط في اللوحـةِ الأصليَّـة التـي لا يعـرف أحـد أيـن هـي ومـن يملكهـا .

* * *

احترفـت تقليـد اللوحتـين بإتقـانٍ مـما درّ عـليّ مـالاً وَفِـيراً، ابتنيـت داراً فخيمـة، داري أصبحـت مَتحفـاً يحـوي عيـون المنجـزات في الرسـمِ والتصويـرِ مـن كل أرجـاءِ الدنيـا ومـن كل العصـور والحقـب، فنانـون مشـاهير وأنصـاف مشـاهير وآخـرون مجاهيـل لم يسـمع عنهـم أحـد إلا أن لوحاتهـم تفـي بالمعايـير الفنيـة والجماليـة لفنـان محـترف وإن لم تلفـت أنظـار

سـماسرة اللوحـات ولصـوص المتاحـف.

رسـمت عـشرات النسـخ طبـق الأصـل للموناليـزا وللطفـل البـاكي! قـرأت الكتـاب المخطـوط عـشرات المـرات أصـدق مـا جـاء فيـه مـرة وأكذبـه عـشرات المـرات.
وأنكـره ألف مـرة. لم أصل يقيناً لما جاء في الكتاب .

* * *

صحـوت باكـراً مارسـت طقـوسي الصباحيـة وجلسـت أضـع فرشـاتي وألـواني حيـث يجـب أن تكـون، حـولي هـدوء الصبـاح الخجـول والصمـت المطبـق، سـمعت تكتكـة وحركـة. تجـاربي مـع الفـئران دفعتنـي للنظـر تجـاه إطـارات اللوحـات ومجاميـع الخشـب، بحثـت، أسـفل المناضـد، وراء الخزانـات، خلـف الكـراسي وفـوق اللوحـات، أثـرت غبـاراً مـن أعقـاب السـجائر، فتـات الطعـام، ذرات الـتراب وبقايـا الألـوان، الخليـط المثـار المتصاعـد كتـم أنفـاسي، داهمتنـي موجـةٌ مـن العطـاس، ضِيـق أنفـاسي والفـوضى التـي اجتاحـت المرسـم جعلـت بـصرى يتجـول عـلي غـيرِ هُـدى، طـرق أذني مـا يشـبه الهَمـس: لمـاذا صحـوت مبكـراً؟ لم يـزل الوقـت ليـلاً ياحبيبـي عـد للفـراش. حانـت منـي إلتفاتـة فـإذا الـدم يتجمـد في عروقـي !! تسـمرت في مـكاني فاغـراً فاهـي !!
الموناليـزا التـي أعرفهـا منـذ أربعـين عامـاً بوجههـا الصبـوح وإبتسـامتها الماكـرة وعينيهـا السـاحرتين وشـعرها المسـدل!!!
الموناليـزا داخـل إطـار اللوحـة تتثـاءب !! رفعـت سـاعدها وغطتمهـا بظاهـر كفهـا وقالـت بصـوت كمزامـيرِ داود: لا زال

الوقــت ليــلاً، عــد للفــراش ياحبيبــي!!! .
حاولــت الــصراخ، خاننــي صــوتي، حاولــت الجــري، خانتنــي قــواي، أحسســت أني أقــف بــلا أقــدام، حاولــت رفــع يــدي، لم أدر أيــن هــما، أصبحــت مجــرد فــم مفغــور وعينــان تبحلقــان في دنيــا أســمها المونــاليــزا.
غمزت لي بطرف عينها اليسري وأشارت إليّ أن أقترب.
لا أدري كيــف أقترَبْتُ.
تمطــت، تنهــدت، تأوهــت وقالــت: تبــاً لهــذا الليــل الثقيــل، واصلــت وقفتــي الصنميــة.
في تلــك اللحظــة أيقنــت أن المعلــم ليونــاردوا قــد أخفــق في التصويــر، فــما أراه لا يمــت للوحــةِ بصلــة، فالأصــل أجمــل مــن اللوحــة آلآف المــرات وأنــا أبحلــق جاحــظ العينــين، مــدت إليّ يدهــا تقــول عُــدّ للفــراشِ يــا حبيبــي، ليونــاردو. في تلــك اللحظــة غبــت عــن الوعــي.

* * *

فتحــتُ عينــيّ متثاقــلاً، أضــواء الشــموع مــن جنبــاتِ الغرفــة جعلــت بــصري يمسح المحيــط حولــه بسرعــة خرافيــة، كل شيء يدعــو للريبــة. كل مــا في الغرفــة غريــب ولم آلفــه وليــس مــن مقتنيــاتي. بــين يــدي المونــاليــزا، قوامهــا الفــارع وأنفهــا الرومــاني المتحــدي صدرهــا النافــر وأثيــث شــعرها الــذي ينســدل كذيــل جــواد أصيــل، تضــع قطعــة مــن قــماش ناعــم مبلــل بالثلــج تفــوح منــه رائحــة الكافــور وفي عينيهــا قلــق مقيــم، تحــول البــصر عنهــا قليــلاً فــإذا صبيــة عشرينيــة باذخــة الجــمال

فارطــة الأناقــة تقــف إلى جوارهــا ترقــب وجهــي في نظــرة متوجســة دارت عينــاي بــين الوجهــين محــاولاً التخمــين أيهــما مــلاك وأيهــما بــشر.

انتبهــت الموناليــزا لحركــةِ عينــي وتصاعــد أنفــاسي، وضعــت المنديــل جانبــاً وأحاطــت وجهــي بكفيهــا البضتــين وأنحنــت تقبلنــي!!! دمعــة ســاخنة ســبقت قبلتهــا ســقطت عــلى وجنتــي، كــررت قبلاتهــا وهــي تتمتــم: ياحبيبــي، نصحتــك بالاعتــدال والاقتصــاد في العمــل، روما شــديدة الحَــرّ هــذه الأيــام ولكنــك عنيــد، عنيــدون آل فنــشي، أشــارت بيدهــا، غــادرت الفتــاة وأصــداء خُطَاهَــا توافــق خفقــات قلبــي.

فتحــت عينــي عــلى دنيــا غريبــة، دنيــا لم أرهــا، لم أقابلهــا ولم أتخليهــا، ســتائر حريــر، بهيجــة الألــوان، لوحــات بارعــة الجــمال، الغرفــة ترفــل في النعومــةِ الباذخــة، حاولــت أتذكــر أيــن أنــا، ومــن أنــا، لم أســتطع، الآن أعــرف شــيئاً واحــداً، أنــا والموناليــزا تضمنــا أربَعَــة جــدران.

غابــت عنــي برهــة، عــادت في ثــوبٍ حريــريّ أحمــر يضــوع عطرهــا ويفــوح شــذاها، اندلقــت في شراييــني دفقــات مــن هرمــون حفــظ النــوع البــشري!!! وكان مــا يكــون حــين يلتقــي آدم وحــواء وحارســهما الشــيطان.

طفقــت أطــوف أســتطلع فــردوسي، قــصر حجــري فســيح، بــادي الرحابــة بــاذخ النعيــم، غــرف تــؤدي لغــرف، أروقــة تقــود لدهاليــز، ريــاش، نمــارق، طنافــس، طقــوس في النــوم طقــوس في الصحــو، طقــوس في المائــدةِ. أزيــاء النــاس وأثــاث البيــت كلهــا

مـما لم يخطـر ببـالي يومـاً في صحـوي أو في منامـي. كل شيء يثـير الاسـتغراب والعَجَـب!!.

يحتوينـا سريـر مـن خشـبِ الصَّنـدل، نصحـو عقـب مطلـع الشـمس، مائـدة الإفطـار ملوكيَّـة، ثـم أتفـرَّغَ للرَسـمِ. أهجـعُ عنـد الظَّهـيرة، الأمسـيات حكـرٌ لليـالي القصـور وسـهرات عليـة القـوم وموائـد النبـلاء والفرسـان في رومـا الأمبراطوريَّـة، نذهـب معـاً في أناقتهـا الفريـدة تتأبـط ذراعـي أم أتأبـط ذراعهـا، لسـت أدري!!!

نعـب كـؤوس نبيـذ العنـب وأحيانًـا كـؤوس العـرق، نلتهـم أطباقـاً يجتهـد طباخـو رومـا وجنـوا وفينيسـيا في تحضيرهـا مـن لحـوم الخيـل ونباتـات الـبراري وأسـماك الأنهـار ومخلوقـات البحـار الدافئـة والبـاردة.

تنادينـي حبيبـي ليـو، أُنَاديْهَـا ليـزا، لسـت أدري لمـاذا يحمَـرّ وجههـا حـين أُنَاديهـا لِيْـزَا.

في اللحظـاتِ الحميميَّـة، وبعـد أن يتصاعـد إلى رأسـينا حبـاب كـؤوس النبيـذ العنبـيّ الأحمـر والعـرق البلـوري، وبعـد أن ترتـوي شرايينهـا بدفـقِ الحيـاة المنهمـر مـن لُهَـاثي وَنَـزْفي، تبـدأ تحـكي عـن فرانشيسـكو جيراردينـي، ذلـك الـثرَّيّ المخبـول الـذي ذاع صيتـه بسـبب زواجـه مـن موناليـزا دي أنتونيـو فلحـق بهـا اسـم جيراردينـي! تقـول أنـه مخبـول، معتـوه، أسـكره مالـه وأفقـده جمالهـا عقلـه، أحبهـا ولم تبادلـه حبـاً بحـب، تزوجهـا بعـد أن هـدد أباهـا بالسـجن إن لم تسـدد عائلتهـا مبلغـاً مهـولاً مـن المـال نتـج عـن عـدة صفقـات خـاسرة

وأنَّها رضخت وتزوجته ولكن قلبها وعقلها متعلقان بي. فرغم موهبتي الكبيرة وفني الرَّاقي يعوزني المَال اللازم لزواجها.
قالت أن وصيفتها نجحت في استقدام ساحرة من بلادِ كوش، سقت جيرارديني وصفة من سحرها جعلته ينام أمداً طويلاً لا يصحو منه إلا حين يحترق البيت الذي ينام داخله، وأنها لا تدري متى يحترق هذا البيت، وأن تلك الوصفة السحرية تضفي عليَّ، أنا ليوناردو دافنشي كل صفات جيرارديني الجسديَّة والنفسيّة، لذلك فإن الجو يخلو لنا لنروي ظمأ روحينا ونطفيء جمر جسدينا ما شاء لنا القدر حتي يعود كل شيء لحاله عند عودة جيرارديني من غيبوبته!! دون أن يلحظ أحد شيئاً.

ماهي إلا بضعة أشهر حتي بدت عليها مظاهر الإعياء وبعض الحماقة، كنت أظنها من رهق السهر وعب كاسات رحيق العنب، إلا أن الوصيفة الحصيفة همست في أذني ذات صباح: سيدي، ترفق بسيدتي، إنها لا تقوى على الوَحَم، صعقت لما قالت الوصيفة.
بعد بضعه أشهر رزقنا ولداً، ولد جميل القسمات حلو التقاطيع أحال حياتنا فصلاً من المسرة الدائمة والبهجة الماتعة.
واصلت حياتي في روما بصفتي الجديدة، أنطونيو جيرارديني الثري، الأرستقراطي، المتيم بحب موناليزا، أسهر، أولم،

أبيــع، أشــتري. ذات حفــل ناديتهــا ليــزا، لدهشــتي انفجــر القــوم ضاحكــين وأحمــر وجههــا وانطفــأ بريــق عينيهــا، مالــت لجانبــي وقالــت هامســة إن اســمها، موناليــزا مكــون مــن مقطعــين مونــا ويعنــي عضــو الأنوثــة في المــرأة وليــزا يعنــي عضــو الذكــورة في الرجــل وذلــك في لغــة أهــل رومــا القديمــة قبــل قيــام الأمبراطوريــة، انتقلــت حمــرة الخجــل لوجهــي وانطفــأ بريــق النشــوة.

إبننــا باولــو، أصبــح ينادينــي ويلاعبنــي، يتجــول في أرجــاءِ القــصر ذي البنــاء الحجــريّ، في خدمتــهِ بضــع وصيفــات وجيــش مــن الخــدمِ والحشــمِ يجوبــون ردهــات القــصر كالنَّحــلِ.

حيــاة رومــا وأحضــان ليــزا أنســتني مــا مــضى مــن أيامــي حتــي جــاء ليــل شــديد الــبرودة قاتــم، عابــس القســمات، فضلــت عــدم الخــروج وجلســنا إلى المائــدة العامــرة بصنــوفِ الطعــام والــشراب نتبــادل الهمســات والقبــلات نعــب مــن خمــر الفــردوس المشــتهاة، بيننــا طفــل يحــاول المــشي، متتعتعــاً مــرة ومترنحــاً مــرات، في ســيره المترنــح أمســك شــمعة مضيئــة في أحــد أركان غرفتــه، لهــب الشــمعة الناعــس أشــعل حــواشي ســتائر الغرفــة المخمليَّــة في غفلــةٍ مــن جيــش الخَــدَم والحــراس، بــلا مقدمــات أضحــي البيــت الحجــري كتلــة مــن اللهــب.

اللهيــب والدخــان والصيــاح والــصراخ و الزعيــق والعويــل والــكل يضطــرب في الــكل والــكل يجــري في كل إتجــاه وفي لا إتجــاه وســط اللهيــب المزمجــر والدخــان المكهفــر والــصراخ المولــول أحــاول العثــور عــلى ليــزا والصغــير باولــو أمســكت

يدهـا محـاولاً الخـروج بهـا ولكنهـا بـلا مقدمـات صرخـت في وجهـي، دعنـي أيهـا الأحمـق، إنـه قـدري، انـج بنفسـك وقبـل أن أنتبـه لقولهـا ودفعـت بي خـلال النافـذة.

ألفيـت نفـسي أطـير في الفضـاء، المسـافة لا أسـتطيع حسـابها، غسـق الفجـر عـن يسـاري، فوقـي زرقـة السـماء وتحتـي زرقـة البحـر الهائـج، المناظـر مـن تحتـي تمـر سريعـة ولا أجـد وقتـاً أتملاهـا وكأنهـا حلـم في ليلـةِ صيـفٍ.

لم أسـتطع التوقـف أو تغيـير إتجـاه طـيراني وكأني أركـب طائـرة تقودهـا الجـن والعفاريـت، زرقـة البحـر مـن تحتـي أفضـت للـون ذهبـي يلمـع مـع انكسـارات شـعاع الشـمس المتلألـئ، وتواصـل طـيراني المجنـون، فـإذا بي أدور وأهبـط رويـداً رويـداً رويـداً لأجـد نفـسي واقفـاً أمـام بـاب داري بـأم درمـان!

وقفـت مدهوشـاً في الصبـاح البـارد، يلفنـي الصمـت الرهيـب . تلفـت حـولي، النـاس يروحـون ويجيئـون يحيوننـي وأنـا صامـت، رفعـت رأسي للسـماء فـاذا أنـا أمـام شيء لا يمكـن وصفـه، السـماء كانـت شـيئاً لا يمكـن وصفـه، لوحـة الموناليـزا الباسـمة، الجميلـة، الآسرة ذات السـحر والأسرار تتراقـص في صفحـة السـماء كـما تتراقـص الصـورة عـلى شاشـات السـينما مرسـومة بحجـمٍ سـماوي أكـبر مـن أي شيء رأيتـه في حيـاتي تتقاسـم الأفـق مـع لوحـة أخـرى، إبننـا باولـو وجهـه ينضـح بـالأسى، تسـيلُ دمعـات مـن مقلتيـه .

وقفـت مدهوشـاً كالصنـمِ أترقـب السـماء والنـاس تجمعـوا في السـاحاتِ والطرقـات وأسـطح البيـوت يرقبـون اللوحتـين

السماويتين. بلا مقدمات إنطوت اللوحتان وأصبحتا شيئاً هلامياً كالدخان، تجمعتا متجاورتين واتخذتا مسارهما نحو الأرض. لدهشتي ولدهشة كل من شهد المنظر توجه خيط الدخان نحو داري، لفحني برده القارس أسرعت للبيت ودخلت، كل شيء كما تركته كأني لم أغب لحظة واحدة، فقط إحدى لوحات الموناليزا وإحدى لوحات الطفل الباكي كانتا إطاراً وقماشا بلا صورة ولا رسم. دار الدخان المتكثف حول الدار و دخل المرسم.

كان ضجيج المارة والعابرين والسابلة المتطفلين والرجرجة والدهماء والرعاع خارج البيت أشبه ما يكون بيوم الحشر. الدخان طاف أرجاء المرسم ثم انضَمَّ جدلتين كضفيرتي طفلة، إحداهما توجهت تلقاء إطار لوحة الموناليزا التي كانت بلا رسم، تكثف الدخان فوق نسيجها فانطبعت اللوحة الأصلية، الضفيرة الأخرى تكثفت حول الإطار الآخر فانطبعت لوحة الطفل الباكي. ما انطبع لم يكن رسمًا، لا، كان وجهٌ حقيقياً .
الموناليزا من داخل إطار لوحتها، أصلحت شعرها، لوحت بالوداع ثم راحت في ابتسامتها الأبدية.
الطفل داخل إطار لوحته، دعك مقلتيه بظاهر كفه، نظر نحوي في عتاب وراح في بكائه الأبدي.

تلفتُ حولي، نظرت من نافذة مرسمي، السماء كانت

صافيــة زرقــاء يتوســطها قــرص الشــمس الذهبــي، النســائم الشــماليّة البــاردة تصــدر صفــيراً خافتــاً عــلي حــواف النافــذة الزجاجيــة.

القصـــاص (١)

اكتملت حلقات متعته الجهنمية، كؤوس وقوارير، ثلج، جبن، زيتون، فول مدمس، مشويات من معطم شهير، راح يعب ما يطيب ويتلمظ ما يستطيب، الفيضان المجنون انحسر قليلاً مخلّفاً ورائه شاطئًا رملياً يزيده اكتمال القمر في هذه الليلة جمالاً وبهاءً، من جهازِ التسجيل ينطلق صوت مائع باغنيةٍ بلا ملامح، أضواءُ القَمَر وما تبقَّى من سُحُبٍ تائهة تَرسِم على المَوجِ المُتَكَسّر أشكالاً وخيالات متراقصة.

بفعل ما عب، اختلط عليه الخيال والحقيقة، طفق يبحلق في لجّة الماء المتدفق في عنفوانٍ، بين الأشكال والظلال والخيالات المتراقصة خُيّل إليه أنَّه رأى وجهها! لم يَدر من هي ومن تكون ولكنه رآها، وجهها الأسمر المستدير البَاسِم، طَفَا وجهها في صفحةِ المَاء لحظة ثم اختفى، برهة، أخذ سطح الماء يدور في سرعةٍ يتصاعد منها زبد وينخفض وسط الدائرة للأسفلِ ثم يصعد رويداً رويداً حاملاً معه شيئاً غامضاً لم يستبن تفاصيله.

هــدأ دوران المــاء، فــإذا بالــشيء عديــم التفاصيــل جســد كامــل، جســد امــرأة يحمــل الوجــه الــذي خــال أنَّــه رآه، الوجــه الأســمر المســتدير البَاسِــم طَفَــا لســطحِ ذاكرتــه مــن عمــقٍ سَــحيق، لم يــدر متــى وأيــن ولكنــه ذات الوجــه، الجســد يكســوه فســتان أســود ذو ورود حمــراء، خُيِّــل إليــه أنّــه رأى هــذا الــشيء مــن قبــل. بــلا مقدمــات أصابــت جســده رعــدة ورعشــة، حــاول القيــام، لم يســتطع حــاول الــصراخ، لم يســتطع، خانتــه أطرافــه، تســمر في مكانــه كتمثــالٍ مــن رمــل الشــاطيء، فغــر فَــاه وجحظــت عينــاه وهــو يــرى الجَّسَــد الطَّــافي فــوق المَــوج يزحــف نحــوه في إصرارٍ وَتَحــدٍّ، اســتقر الجَّسَــد ذو الوجــه الأســمر المســتدير الباســم عَــلى مســافةٍ لا تزيــد عَــن المتريــن يــئن ويتلــوى، تنفــرج السَّــاقَان والأنــين المكتــوم يــزداد إيقاعــه سرعــة، الســاعدان يتبــادلان الحَركــة ذات اليمــين وذات الشــمال، والكفــان تقبضــان الرَّمــل الرَّطِــب كأنمــا يعتــصران مــا بــه مــن قطــراتِ المَــاء والأنــين أصبــح شــيئاً لا يطــاق. إزدادت عينــاه جحوظــاً وعــلا شــهيقه وســال العــرق الــدافيء مــن جبهتــه إلى العنــق والكتفــين، بلــل سراويلــه ومــا فوقهــا ومــا تحتهــا. مــن بــين الســاقين المنفرجتــين واللتــين ترتفعــان فــوق الأرض بزوايــا محســوبة، انبثقــت دفقــة مــن الــدَّمِ والمَــاء والمُخَــاط، أعقبهــا صراخ ينبــيء بميــلادِ طفــل، ســكن الجســد المنهــك بالأنــين والطَّلــق، الطفــل الوليــد، مكســوّ بالــدمِ والمخــاط بــدأ يزحــف تجاهــه وهــو يناغــي: بابــا، بابــا، مامــا ، مامــا، تجمــد الــدم في عروقــه والطفــل الــذي يبلــغ مــن العمــر بضــع

ثـوان يقطـع مسـافة المتريـن في حركـةٍ لا هـي زحـف ولا هـي سـباحة، وهـو في ذهولـه أمسـك الطفـل بيـده، حـاول الفـكاك ولكـن الطفـل الوليـد أبـدى قـوة وعنـاداً عجيبـين. الطفـل، دفعـه دفعـة لـو تلقتهـا الأرض تزحزحـت عـن مسـارها، سـقط عـلى قفـاه، صفعـه الطفـل بيديـه الملوثتـين بالـدم والمخـاط والرمـل عـلى وجهـه مـرات عديـدة ثـم أمسـك بالحبـلِ الـسري وراح يلفـه حـول عنقـه وهـو يضحـك ويقهقـه، شـدت يـدا الطفـل الغضتـان الحبـل مـن أطرافـه، زادت عينـاه جحوظـاً واضطـرم، جيـب قلبـه وَعَلَـت أنفاسـه، في تلـك اللحظـة، في تلـك اللحظـة بالـذات، أيقـن أيـن ومتـي رأى ذلـك الفسـتان الأسـود ذا الـورود الحمـراء والوجـه الأسـمر المسـتدير الباسـم .

* * *

وَرَث المـال والجـاه والفـراغ، مـال أبيـه جعـل كل شيء طـوع بنانـه، ظـل يطـارد المتعـة في أركانِ الدنيـا. كلّـما ظـن أنـه ارتـوى، زاد ظـمأه.

ظلـت المزرعـة التـي تشـاطِئ النَّهـر وَكْـرَه المفضّـل، دخلتهـا مئـات النسـاء، مـن مختلـفِ الأعـمَار والسـحنات والألسـن خرجـن مطأطئـات الـرؤوس يقبضـن وَرَق المـال السَّـاحرة وقلـما يعـدن، إلى أن جـاءت، وحيـدة بوجهها الأسـمر المسـتدير الباسـم، شيء لم يـره مـن قبـل، ظَنّهـا مـن زمـرة مـن يأتـين ويذهـبن، قالـت إنهـا تبحـث عَـن عمـلٍ يقيهـا شر الفَاقَـة والسـؤال ومـا يليهـما مـن شرورٍ، عَـرَض عليهـا عرضـاً ولكنهـا صدتـه وقالـت مـا لهـذا خرجـتُ مـن البيـت، مالهـذا جئـت،

ما لهذا جئت. زاده عنادها رغبة في كسر كبريائها. وسوس له شيطانه فتظاهر بالتعاطف معها، أوكل اليها أمورا تنجزها في المزرعة، استمالها بورق المال ولكنها استعصمت بكبريائها.

حين اكتملت خطته استبقاها لإنجازِ بعض المَهَام الطارئة، ترك لها شيئاً من طعامٍ شهيّ وقارورة مشروب وخرج.

عاد بعد برهة وجدها زائغة العينين، حاول افتراسها ولكنها أبدت من القوةِ والبسالة شيئاً لم يعرفه فزاد وأفرط في قوته.

بعد صراع مرير خارت قواها، قضى وطره وهي تلفظ أنفاسها وما درى أنه قد بذر في جوفها بذرة فنائه.

استعان بالحارس وحملا الجسد الأسمر ذا الوجه المستدير الباسم وطوحا به في لُجَّةِ النَّهرِ يكسوهما ظلام الليل البهيم، الحارس حصل على قدرٍ من المَال وغادر إلى حيث لا يعلم أحد.

* * *

في اللحظة التي أيقن فيها أين ومتى رأي ذلك الوجه الأسمر الباسم اقتحمت سمعه صافرات سيارة الشرطة في عوائها الجهنمي، أحاط به جنود شاهروا أسلحتهم وحارس المزرعة بين أيديهم يصيح: منذ تسعة أشهر لم أستطع النوم، إنها تقتلني كل ليلة ألف مرة ومرة.

القصاص (٢)

الخرطوم في يونيو قطعة من جهنم، العرق يتفصد والوجوه تحمل أحزاناً دفينة وضيقاً بكل شيء.
وقفن، ثلاثتهن، الزّي يفضح هويتهن، طالبات في مدرسة ثانوية، إتَّخَذن موقعهن في الطريق انتظاراً لوسيلة تقلهن لطرف المدينة قبل أن يحل الظلام، أزمة الوقود ضمن أزمات أخرى جعلت الأمر عسيراً. الشمس من مُتَّكَئِهَا الغربي تكسو الكون لوناً ذهبياً يضيع بهاؤه مع موجات الصَّهد اللَّافح.
عيونهن البريئة تتابع أرتال السيارات المتدفقة في غرور وعجرفة عسى ولعل، نظرات السائقين من وراءِ العوينات، وأصوات المغنين التي تخترق أسماعَهُنّ عجلت بتلاشي الآمال الصغيرة التي ذهبت أدراج الرياح.
فجأة وبلا مقدمات توقفت سيارة فارهة ذات لون فضي بالقرب منهن ثم تحركت للوراء قليلاً وهن يبحلقن في زجاجها المكسوّ بالظلالِ السوداء وقد ذهبت بهن الظنون،

فربما توقفت لتقل شخصاً آخر، موديل العربة وشكلها الأرستقراطي فوق أحلامهن. توقفت العربة بمحاذاتهن تماماً، تحرك زجاج نوافذها تلقائياً وإذا بصوتٍ نَديّ يقول هامساً: تفضلوا. تقضلن.

خياشيم العربة من الجانبين تنفث هواءً بارداً منعشاً، انشغلن بالتأملِ في محتويات العربة من الداخل، كل شيء فيها جميل يُنَبّيء عن ذوقٍ واختيار، اختارت رفيقاتها مغادرة السيارة قبل شارعين أو ثلاثة من بيوتهن درءًا للقيل والقال وأفواه العطالى والمتسكعين في الطرقاتِ التي لا ترحم. بعد مسيرة صامتة غادرت السيارة استدارت السيارة للوراءِ وغادرت تنهب الأرض نهباً لا تلوي على شيء.

بعد يومين تكرَّر ذات المشهد، رفيقاتها التقت عيونهن في شكٍّ وَرَيبَة، توقفت السيارة بطريقة جعلتهن يتراجعن للوراءِ خوفًا أن تدهس أرجلهن البَضَّة، بلا ترتيب جلست في المقعدِ الخلفي، عيناها أخذتا تجولان داخل فضاء السيارة، فجأة التقت عيناها بعينيّ السائق في المرآة الداخلية التي تكبر الوجوه مرات ومرات، شعرت برعدةٍ تسري في بدنها واضطرب نبضها وكادت تشهق، حولت بصرها للجموع التي تنتظر على أطراف الطريق وابتسمت.

غادرت رفيقاتها، انتبهت ليدِ السَّائق تعدل زاوية نظره بحيث يرى وجهها كاملاً وترى وجهه كاملاً، وجهه أسمر مستدير به شباب ووسامة وشيء ما تفتقده طوال عمرها.

بـلا مقدمـات قـال:
اسـمي وليـد، أصدقـائي ينادوننـي ولي، أعمـل في الخـارج منـذ خمـس سـنوات عـدت أبحـث عـن بنـت الحـلال، أرجـو أن تكـوني مـن نصيبـي. تآمـرت المفاجـأة مـع الدهشـة والـبراءة فألجمـت لسـانها.
في اليـوم الأخـير مـن الأسـبوع جـاءت السـيارة الفارهـة وكأنهـا عـلى موعـد، وقفـت لثـوان تبحلـق في الوجـه الأسـمر المسـتدير الوسـيم تبحـث عـن شيء تفتقـده طـوال عمرهـا، صويحباتهـا تغامـزن وتبسـمن ثـم جلسـن فـوق المقاعـد الوثـيرة. غـادرن السـيارة حيـث أردن بعـد برهـة انحرفـت السـيارة عـن الطريـق وتوقفـت أمـام كافتيريـا، جلسـا متقابلـين، عطـره ليـس كمثلـه عطـر، وسـامته فاقـت توقعاتهـا، أكملـت لـه وصـف البيـت، وعدهـا بالزيـارةِ مسـاء الغـد، سـيأتي للتعـارف.
الصبيـة الذيـن يلعبـون الكـرة قبيـل المغيـب في ميـدان يتوسـط بيـوت الطـين الغـبراء عديمـة الملامـح لفتـت أنظارهـم سـيارة فارهـة تتهـادى تشـق الميـدان دون ضوضـاء أو ضجيـج، تنعطـف ذات اليمـين وذات الشـمال وسـائقها باسـط ذراعيـه عـلى المقـود، توقفـت عنـد بيـتٍ يَصعُـب تمييـزه، بيـت مـن الطـين الأغـبر، بابـه مـن الصَّفيـحِ غـير محكـمِ الصنعـة. إن لم تحسـن المـداراة والمـداورة عنـد الدخـول والخـروج ربمـا تـرك مزقـاً أو فتقـاً في أطـرافِ ملابسـك إن لم يكـن في جلـدك أو أعضـاء جسـدك.
اسـتقبلوه، أم أربعينيـة معروقـة الأطـراف كسـيرةِ العَينـين ذات

مسحة من جمالٍ ريفيّ ساذج، أخ شقيق أكبر وأخت أصغر، أجلسوه على كرسي من الحديدِ وحبال البلاستك ووضعوا أمامه زجاجة مشروب غازيّ فوق منضدةٍ حائلة اللون.

حدثهم عن اغترابه وعمله وعودته واستثماراته و مكتبه، أجابوه أن أباهم مفقود، كان يعمل في «جدة» ولكن أخباره شبه مقطوعة منذ عام أو بعض عام. رد بقوله: جدة، جدة مدينة الرعاع والرجرجة والدهماء، مليئة بالبنغال والبتان والسودانيين معظم من فيها عطالى ومحتالون. أنا أعمل في الرياض مقر العرش وصولة الدولة والأمراء وسراة القوم، فغروا أفواههم ينظرون!!

قالوا أن لها أخاً شقيقاً تخرج من كليةِ البيطرة ولكنه سافر بجواز يحمل مهنة راعي أغنام، وأنه يتصل مرة كل شهرين لأنه لم يوفق في الحصولِ على عمل حتى الآن، قطب جبينه وقال:

ربما نستطيع تدبير أمره وإلحاقه بشركاتنا، أخذ منهم الاسم ورقم الهاتف .

أضاف أنه جاء للتعارفِ لأن أسرته تقيم بعيداً في الأقاليم وإذا وجد الموافقة سترورهم أسرته لإعلانِ الخطوات الجادّة المطلوبة.

وَدَّعُوه، عيونهم تابعت سيارته الفَخمَة وهي تغادر طرقات الحي في قلقٍ وترقّبٍ وحيرة.

غادر الحي وهو يدندن بمقاطعِ أغنية مما يطارده عسس

السلطان وبصَّاصو المدينة بدعوى الغناء الفاضح.
دَبَّرَا كيف تزوغ من حصصِ المدرسة لتلتقيهِ، من جيبهِ تذوقت الشاورما وعصير المُشكَّل من الفاكهةِ الإستوائية وفاكهة البحر الأبيض المتوسط، برفقتهِ عرفت أن للطعامِ طعم آخر وللشراب مَذَاق آخر.
في جلسةٍ أخرى قال أن أسرته جاءت من أطرافِ البلاد القصيَّة وأنَّه يرغب أن تزورهم ليروها قبل أن تجيء الأسرة للزيارةِ. توقفت السيارة الفارهة أمام بناية كبيرة متعددة الطوابق، يبدو أنَّها مقسَّمة لعدةِ مَسَاكِن ولكنها لم تلحظ حركة سُكَّان آخرين، استقبلتهما خادمة رجراجة الأرداف ذات صدر نَافِر وَغَنَج ودلال، قَدّمت لَهُمَا مشروباً دلقته في جوفها المَحرور وجلست تنتظر العائلة المزعومة .
لم تعد للبيت في ميقاتِهَا المُعتَاد. زميلات الدّراسة قُلن إنَّهُنّ لم يرينها منذ ثلاثةِ أيام، طَار عقل الأم والأخوين وطفقوا يبحثون في نطاقِ وجودها، بيوت صاحباتها، بيوت الأهل والأقارب، أقسام الحوادث في المستشفيات، مراكز الشرطة، ثم صدمتهم إشارة من الشرطة أنها في قسم شرطة النظام العام في أحد الأحياء الإرستقراطية، استغربوا لوجودها هناك. حين ذهبوا، دمعت عيونهم من هول الفاجعة ودمعت عيونها من هَولِ المصيبة، عَادوا مُطَأطِئوا الرؤوس كَسيروا الخَاطِر، مِن يومها لم تُغَادِر بَاب البيت المصنوع من الصَّفيحِ رديء الصَّنعَة.
دَبَّر أمره بالرشوةِ فأختفَى مَلَف القضيّة كَامِلاً.

يَخْـرجُ كُلّ لَيلَـةٍ يَصطـاد فَريسَـة، يَفـرغ فيهـا مـا يـتَراءى لـه مـن خيـالاتٍ، أمـه الجميلـة الوسـيمة مـن البـلادِ البعيـدة، أبـاه المُقَامِـر الـذي تَخَـلىّ عنـه أشـقائِهِ، أمـه تديـر مجالـس الـشراب في تلـكِ الإمَـارة البعيـدة وتكمـل ليلهـا في أحضـانِ مـن يرغـب والأب سـادر في غَيّـهِ وغيبوبتـه.

طرقـات المدينـة في الليـلِ غَـير أوقاتهـا في النَّهـار. التقاطعـات والمحطـات في أحيـاءِ الطَّبقـات الوسـطى و لفقـيرة تمتلـئ بنسـاءٍ وفتيـات يفـوح عطرهـن وتترجـرج أجسـادهن البَضّـة في أزيـاءٍ تندلـق منهـا الأنوثـة والإغـواءِ في انتظـار زبـون يرمـي في جوفهـنّ شـيئاً مِـن طعـامٍ أو مـن شرابٍ .

في تلـكِ الليلـة، أحسـن اختيـار هندامـه وعطـره، السـيارة الفارهـة تنزلـق فـوق الأسـفلت اللامـع تبحـث عـن فريسـة، في ذات اللحظـة كان بيـت الطـين الأغـبر ذي البـاب رديء الصنعـة يشـهد فصـلاً مـن المأسـاةِ المتجـددة، يملـؤه الاضطـراب والحـيرة، اسـتدعت حالـة البنـت التـي انقطعـت عـن الدراسـة قبـل تسـعة أشـهر وبضـع أيـام نقلهـا بوسـيلة نقـل متهالكـة لمستشـفى، في اسـتقبال المستشـفى قالـت الممرضـة في حَـزمٍ: حالـة ولادة عاجلـة ودفعـت البنـت أمامهـا إلى حيـث أشـارت، ألجمـت الداهيـة لسـان الأم والأخ.

أعمـل الطبيـب وطاقمـه أيديهـم وأدواتهـم وحقنهـم، مـع صرخـة الوليـد الـذي جـاء للدنيـا غـير مرغـوبِ فيـه كانـت شـاحنة ضخمـة تهـرس السـيارة الفخمـة ذات اللـون الفـضي وتحيلهـا إلى حطـام يصعـب تمييـزه، مـن بـين فُتَـاتِ الزجـاج

والحديد المكوّم في شارع الأسفلت كان نهرُ الدّم يسيل جَرّاء حادث حركة يرسم وردة تشبه تلك الوَردة التي رآها السّائِق قبل تسعة أشهر وبضع أيام.

يحيَـــــا المَلـــــك

ثلاثتنا أخوة، أبونا واحد، أمهما واحدة وأنا فَرد، أبونا هو الملك، سَليل بعانخي وَتَهاركا، يَمتدّ مُلكه إلى حدودٍ أكسوم شرقاً، وإلى تخومِ الصحراء ذات الرمال الذهبية غرباً، أنا ابن الملك الأكبر ووريث عرشه. ماتت أمي لحظة ميلادي، تعاونت جدتي وعمتي وهي في ذات الوقت خالتي، على تربيتي وَتنْشأتي منذ الصغر بحسباني ملك المستقبل ووريث العَرش الذي تُدين له البلاد بالطاعةِ والتقديس.

الملك، أبي، بعد وفاة أمي، تزوج ابنة عرَافَة القَّصر، بعضهم همس في أذني أن أمي ماتت بسببِ سِحر العَّرافة، زوجة أبي أنجبت الولدين.

عرافة القصر الشَّمطاء تَحرص على تجاهلي، تنادي أحفادها الأمراء وملوك الشمس وحين تناديني تجرد اسمي من الألقابِ رغم أني أحملها بأمرٍ مَلَكيّ، وعن استحقاقٍ. أصحو في بعضِ الأحيان وأجدها في مَخدعِي، تتمتم وتبرطم بالرقيّ وتلوح بالتعاويذِ، قالوا: لحظة ميلادي، أطلقت سبع بومات

وسبعة خفافيش وسبع قطط وقد ربطت في أجنحتها وأقدامها التعاويذ والتمائم حتي يتشتت فألي كما تشتتت مصائر هذه المخلوقات.
قالوا أنه في ليلةِ زفاف ابنتها لأبي دَفَنت سلحفاة معمرة وصل كوبرا عمره ألف عام تحت مَرقد أبي لينجب من ابنتها سلالة تحكم إلى نهاية الدنيا متناسية أني وريث العرش.
تولت عمتي تدريسي وتعليمي الكتابة والقراءة، وتولت جدتي تعليمي شؤون الدّين والعبادة وسياسه الرعية.

جدتي أم أمي وأم أبي في ذاتِ الوقت، عَمَّتِي شقيقة أبي وشقيقة أمي في ذات الوقت، لَحْظَتا انحياز العرَّافة وسعيَهَا لمضايقتي وَتَهمِيْشي، كَانَت لهما حِيَل بَارِعة في إنصافي بل وتمييزي من حيث لا تحتسب العرافة الشمطاء وابنتها زوجة الملك. تأتي جدتي بكوبَيّ عَسَل أو جَرَّتَيّ لَبن أربعتهم حضور وثلاثتنا حضور، تعطي أختي الكوبَين أو الجّرتين، تفرح عَيْنا العرَّافة وبنتها فرحاً لفوزِ ابنائها بِالعسلِ أو اللبن. تطلب عمتي من إخواني أن يعطيني كل واحد منهما نصف نصيبه. أفوز بجرعتين ويحصل كل واحد منهما على جرعة واحدة. بلا مقدمات أصدر الملك مرسوماً عَيَّنني مستشاراً وعين أخي تا آمون حفيد العرَّافة وَليَّاً للعرشِ ونائباً لِلمَلك
كَظَمت غيظي، كظمت جدتي غيظها، كظمت عمتي

غيظها، تلاقت عيوننا وهي تلمع. همس كبير البصاصين في أذن جدتي، فاستدعت كبير العَسَس، عند الغَسَق ذهبت عمتي إلى كبير الكَّهَنة في الدَّيرِ الجبليّ، عادت، وقد اكتسبت عيناها لمعاناً ينبيء بالمكرِ وَسعة الحيلَة.

لي أصدقاء كثيرون من أبناءِ العَامّة، نَخرج للصيدِ نَركب الخيل، حين يسير ركبنا في أرجاءِ المدينة أرى عيون الغيد تتلصص من خلالِ الأسوارِ والأبواب المغلقة وأسمع الهمسات والتنهدات المكتومة ترميها الحسان في طريقي أملاً وطمعاً.

ليل المدينة بهيم الظلام، جلست أمام غرفتي أتطلَّع للسماءِ بلا مقدمات جَاءت عَمَّتي، قبل أن أتكلم قبضت أصابعها داخل كفّها وأفرَدت السّبابة ووضعتها فوق شفتيها، أمسكت بيدي وَسارت، سرنا إلى مخدعها. أغلقت الأبواب وأرخت السّتر والسدوف، قالت أنت ولي العرش. ابنا الفاجرة لا يحق لهما الجلوس فوق عرش المملكة، من بينِ السّترات بَرزت كاهنة عجوز، قالت: أنا المسئولة عن نُطَف الملوك، للملكِ أن يتعهر مع من يشاء إلا أخواته، لا يحق له مساسهن دون ربَاط مقدس. بعد موت أمك، خالف أبوك شرعنا ومس أخته أماني ماني دون رباط مقدس، حَلّ عليه غضب الإله، فحرمه من متعةِ وصال النساء وماتت أماني، تزوج أبوك بنت عرَّافة القصر بتدبيرِ أمها الحيزبون وهي تدري سِرّ اللعنة، لتنجبِ ملوك المستقبل وتتكفل هي بموتك، فينتقل الملك و العرش إلى

عائلتها، عائلة «شالكو»، أبوك لم يكن قادراً عَلى وِصَالِ النّساء، دبرت العرافة وابنتها الفاجرة لقائدِ الشّرطة ونديم الملك أن يتجرّع كَأساً من سمن الغنم الجبليّ قبل مَجلسِ شراب الملك، فلا تصعد الخمر لرأسهِ وحين يغيب عقل أبيك بفعلِ الشراب يتسلل نديمه لمخدعِ الملكة، هكذا أنجبت الفاجرة ابنيها، ليسا من صُلبِ المَلك فلا يجوز لهما الجلوس عَلى العَرش، أنت الملك، فَتَحت عيني أبحلق في وجوهِ المرأتين.

قالت عمتي: لَن تدعك العرّافة، خذ، هذه تميمة من قرن الخرتيت منقوعة في خَلِّ التفاح، أنقعها وأشرب ماؤها، لن يسري السم في بدنك أبداً، هذه التميمة هي قلب أسدٍ محشوٌ ببرازِ النّمر، لَن تقترب منك الضواري ولن تخاف شيئاً أبداً، وهذه الثالثة، قطعة النحاس ذات النقوش سرقها عفريت من تحتِ عَرشِ سليمان جئت بها من أورشليم وقد دفعت فيها مائة مِثقال مِن الذَّهب، أربطها حول خصرك لن ينالك سهم ولا رمح ولا خنجر ولا سيف، أنت الآن في حمى آمون، الشمس التي يعم ضياؤها الكّون، فليرعاك ويباركك، دعنا الآن نخطط لأبناءِ العاهرة أحفاد الحيزبون الشَّمطاء الفاجرة.

* * *

عدنا من رحلةٍ لنواحي المملكة، ألفينا القصر يمور، الملك مريض ويلح في طلبي، حرارته فوق الاحتمال، عيناه غائرتان وفمه جاف ووجهه ذابل، حوله الكهنة والعرافون

يتمتمون بالرقيّ والتعاويذ يلقون فوقه التمائم، القواد والقوادون ورجالات البلاط ورؤوس الأقاليم، إخوتي تحيط بهم أمهم وجدتهم تلمع عيونهم بالمكرِ واللؤم.
حين رآني تهلل وجهه وأفتر ثغره بَاسِمَاً، أمسكت يده وقبلت جبينه وهمست في أذنه أني قد أديت ما أوكل إلى من مهامٍ، أومأ برأسِهِ، مُستحسناً، حاول الكلام إلّا أن العرَّافة وابنتها عاجلتاه بجرعةِ مَاء، تكررت محاولاته مراتٍ ومراتٍ وفي كل مرةٍ تعاجلانه بماءٍ أو عسلٍ أو لبنٍ، التقت عيناي بعيونِ عَمّتي وَجِدّتي. إنّهما تمنعانه الكّلام. لحظاتٍ وأسبل جفنيه في نومتهِ الأبديّة.
قرعت الطبول وَعَزَفت الموسيقى الجنائزيّة وهتف هاتف مات الملك، اكتملت كافة إجراءات التتويج عُقب دفن الملك الهَالِك، امتلأت الطرقات بالمدعوّين مِن المَمالك المجاورة والمُدن والأقاليم يحملون الهدايا، طرقات مروي مفروشة بالرياحين والرَّمل الأبيض ترحيبًا بالقَّادمين. تقدم موكبنا العرافون والكهنة، تبعناهم ثلاثتنا، أبناء الملك، ثم قادة الجيش والشّرطة والبصّاصُون، جدتي وعمتي وعرافة القصر وابنتها ثم عليَة القوم من الوزراءِ والمستشارين والجمهور المصطف في الطّرقاتِ يَعلو صوته بالأهازيجِ والزغاريدِ وأناشيدِ المعابِد وهمهمات التَّتويج. جَلَس المَلك غير المُتوجِ وَجَلَست عَن يسارهِ بصفتي مستشاره وجلس شقيقه عن يمينهِ بوصفهِ ولي عهده، جَاء الكهنة في أثوابِهم الحمراء، جيء بالصَّولجان الأبنوسي المطعّم بالفضةِ

والعـاج، جـيء بالتـاجِ، يـا إلهـي ذهـب وَمَـاس وياقـوت وزمـرد. وضعوهـما انتظـارًا لكبـيرِ الكَّهنـة الـذي سـيضع التـاج عـلى رأسِ المَلَـك.

مـن بـين الجمـوع الفائـرة بَـرَزت كاهنـة جبـل بيـلا(١) ترفـل في أثـوابٍ سـوداءٍ تكسـوها حتـى أخمُـص قدميهَـا، همسـت في أذن كاهنـة جبـل قيـلي(٢)، سـارتا خطـوات وهمسـتا في أذن الكاهنـة العجـوز التـي بـرزت مـن بـينِ السـتور لَيْلَـة أخبرتنـي عـن لعنـة الملـك الهالـك، تقدمـت الكاهنـات الثلاثـة نحـو كبـير الكَّهنـة الـذي بـدأ يشـق طريقـه وسـط الجمـوع الهـادرة ليكمـل خطـوات التتويـج، حـين همسـت الكاهنتـان في أذني كبـير الكهنـة، امتقـع وجهـه وعلتـه صفـرة وحـيرة واضطـراب. نـادى كبـير الكهنـة قائـد الجيـش ورئيـس الـوزراء وأمـراء النَّواحـي، اجتمعـوا لبرهـةٍ في إحـدى حجـرات القـصر، خرجـوا مطأطئـوا الـرؤوس صامتـون، كبـير الكهنـة دَنَـا مِنّـا نحـن الثلاثـة، أبنـاء الملـك، قـال يوحـي الإلـه آمـون قـرص الشـمس الـذي يعـم الأرض بالضيـاءِ بإجـراء اختبـار قبـل تتويـج الملـك، سـيكون الاختبـار قاسـياً، مـن يجتـازه سـيبيت الليلـة ملـكًا، لم يكشـف عـن كَنَـهِ الامتحـان ولكـن وجهـه كان ينضـح بـالأسى. نظرنـا في وجـوهِ بعضنـا البعـض، يبـدو أن ثلاثتنـا مُصَمّمـون عـلى دخـولِ الامتحـان. أعلنّـا موافقتنـا، عَـاد لغرفـةِ الاجتـماع، أعتـلي أسـوار القّـصر ثُلّـة مـن الجنـودِ مدججـون بالأقـواسِ والسّـهام. تقـدم مِنّـا وَصيـف المَلَـك يحمـل جُـرّةً وثلاثـة أكـواب مـن الذهـبِ. مَـلأ الأكـواب وَقَدمّهَـا لَنـا، تجرّعنّـا

الأكـواب، أخـوتي اعتـصروا بطونهـم مـن الألم، بـلا مقدمـات اخترقـت الصفـوف ثلاثـة سِـبَاع وثلاثـة نمـور، إضطّـرب إخـوتي في مجالســهم وجحظــت عيونهــم، بقيــت في مــكاني رابــط الجَّـأش ثابـت الجِنَـان، أشَـار كبـير الكهنـة لثلـة الجنـود الذيـن يعتلـون أسـوار القـصر. انطلقـت سِـتة سـهام، تَشـقّ الهـواء في إصرارٍ وَتَحـدٍّ مُتجهـة نَحـو منصـة التّتويـج. المسـافة بـين أوتـارِ الأقـواس وَمنتهـى مسـيرة السّـهام كانـت أشـبه بيـومٍ مقـداره ألـف سـنة، الصَّمـت عـمّ الجَّميـع والعيـون تعلّقـت بالسـهام التـي تمـضي في مسـيرتها ولا أحـد يـدري مُنَتَهاهَـا .

في منتصـفِ المَسـافة بـين مرمـى السّـهام ومنتهاهـا سـقط أخـواي، سـقطا سـقوطاً مُدَويّـاً، بُرهَـة وأحسسـت بضربتـين عـلى حدقـات عينـي، فتحـت عينـي، كانتـا مبصرتـين التفـتُّ نحـو أخـوايّ عَـن يمينـي، كانـا مُمَدَّديـن وأربعـة سـهام مغروسـة في حدقـاتِ عيونهـم الأربعـة وَقَـد خَرَجـت مِـن مؤخـرة الجمجمتـين والـدّم يندفـع نافورتـين مـن ثَمَـاني ثقـوب، النمـور والأسـود تنهـش لحـما تـربى ليكـون ملـكًا.

رفـع كبـير الكَّهنـة التّـاج الذهبـيّ ووضعـه فـوق رأسي، تواصـل إنشـاد المُنشـدين وَغِنَـاء الحضـور والكهنـة والرّهبـان والعرّافـين، قبضـت عـلَى الصولجَـان الأبنـوسيّ بيميني، أصلحـت وضـع التّـاج عـلى رأسي، خُضـتُ بحـيرة الـدّم الطَّـازج لأتلقّـى تبريـكات جـدتي وَعَمّتـي وعرافـة جَبـل قيـلي وَعَرّافـة جبـل بيـلا وحارسـة نطـف الملـوك، تبسـمن وخَاطَبْنَنِـي: مرحبًـا ياصاحـب الجلالـة، مرحبـاً أيهـا الملـك.

الطَّيـــــفُ الشَّـــــارِد

الضـوءُ الوَقِـح المُتلصّـص عَـبر النَّـافذة فَاجَأتنـي صفاقتـه، حاولَـت إتّقـاء تَلصُّصُـه إلا أن أطـرافي المُبعـثرة خَانَتْنِـي، بَذَلَـت جُهـدًا خُرَافيًّـا حتـى التأمَـت الأطـراف الخئونـة، حـين عـاودت النَّظـر عَـبر النَّافـذة عَـلّ وَعَـسَى أطـردُ المتلصـص، كَانَ الضّـوء قـد مـضى.

بعدمـا أحسَـنَت لملمَـة أطـرافي، غشـيَتْنِي رَغبَـة التسـكُّع في عيـون جميـلات المدينـة، عَـسَى أن يكتسـب جسـدي بعـض الـدفء الـذي إفتقـده في الفـراشِ، سِرَتُ أتلفَّـت فِي مَـرحٍ، أدنـدن بأغنيـةٍ ممنوعـةٍ بأمـرٍ عَسَـس السُّـلطَان، عنـد الناصيـة الزجاجيـة لمحتهـا، لسـت أجـزم أهـي أم طيفهـا المُـراوغ المُخَاتِـل، الـذي يطـارد خُطَـاي عَـشر سـنوات دون أن يلحـق بي ولـو مَـرّة واحـدة، جَـاء الآن دَوري لألحـق بِـه. حـين أكملـت خطّتـي كَان التَّعـبُ قَـد بَلَـغ مَـدَاه، بِـلا مُقَدّمَـات لَمَعـت في ذاكـرتي جملـة صديقـي كـمال وَنَحـن نَعـبر وادي نِيـالا الكَّبـير نحمـل بقـج أشـيائِنا الصَّغـيرة فَـوق رؤوسـنا، السَّـيل الهـدار المندفـع يفاجئنـا عنـد منتصـف الـوَادي، مـاؤه بَـارِد، بَـارِد، بَـارِد، صديقـي انطلقـت ضحكتـه مجلجلـة كالفجيعـةِ: الآن

بلـغ السـيل الـزبى وَتَعَمّـد خصـم عشريـن بالمائـةِ مـن الكَّلمـةِ الأخـيرة واختـار الحَـرف الأخـير حَسَـمَا لصالـحِ السَّـامعيْن، قائـلاً: إنّـه موسـم بـوار الحـروف الكسـولة التـي تَحتَـلّ نهايـة الكلـمات، ضحكنـا وبـرودة المـاء تلاعـب مـا يسـتوجب الـسّر مـن أجسـادنا.

كانـت في كامـلِ زينتهـا، لم أرهـا مـن قبـل صقيلـةً لامعـةً تشـع كفكـرةٍ عبقريـةٍ تحـل مـا اسـتعصى عـلى راهـب قـضى عمـره يحـاول فـك طلاسـم الوجـود، العَرَبـات المتدافعـة عـلى الشَّـارعِ الأسـفلتيّ الصقيـل وسـائقوها النَّزِقُـون المُتفلتـون فوتـوا عـليّ فرصـة عناقهـا، حـين انقطـع سَـيل العربـات عَـبَرَتْ الشَّـارع ببـصري، كل البضائّـعِ المعروضَـة خَلـفَ الوَاجِهَـات الزُّجَاجيّـة كانـت تَمِـدّ ألسـنتها في شـماتةٍ وقحـةٍ، بَصَقَـت في إتجَاهِهـا واللعنـات تتطايـر بـين أسـناني مُتَزَاحِمَـة، لَعَنَـت سنسـفيل مَـن أوقعتنـي في هَـذَا الحَـرَج.

سَرَت بِضْـع خَطَـوات في إتجـاهِ سَـيْر العَرَبَـات المُتدافِعَـة، مَـرّة أخـرى لمَحتهـا عنـد طـرف الشَّـارع، النَّاصيـة الأخـرى، ظَـلّ طيفهـا يُطَـارِدَني عـشر سـنوات، هـو راغـبٌ وأنـا أتمنّـع، الآن أُطارِدهَـا بِرَغبَـةٍ جَامحـةٍ وهـي تتمنّـع، أطاردهـا ولا أسـتطيع اللّحـاق بهـا، عجبـت أهـي أم طيفهـا الـذي أُطَـارِد، لأني مـا طـاردت شـيئًا إلا و ظفـرت بـه، إلا هـي!!!

معرفتـي بطرقـات المدينـة أسـعفتني، دخلـت زقاقًـا ضيقًـا، أسـير في عجلـةٍ، نَفَـرٌ مـن المتسـكعين و الباعـة المتجولـين اسـتغربوا، ليـس في المدينـةِ كُلّهـا مـن يسـير في عجلـةٍ، وَحْـدي مَـن كان

يسـير في عجلـةٍ.

عنـد تقاطـع الزقـاق مـع زقـاقٍ آخـر، التقينـا وجهًـا لوجـه، وجههـا مفـازةٌ مـن الحُسـنِ والبَهَـاء والأطيـاف المتدافعـة رغـم خفـوت الضـوء بفعـلِ غِـمَام أغسـطس، وجههـا الأبنـوسي كان يشـع بهالـةٍ لم أدر كنههـا، كل مـا عرفـت أنهـا الآن أشـهى مـا تكـون، وجههـا أشـهى مـا يكـون، حَدّقـت فيـه - في وجههـا- غمـرني فـرح كطفـلٍ يَـرَى وجهـه في المـرآة أول مـرة، تبينـت تفاصيـل ابتـداء الخَلـق الأول، وَدَدَتُ لَـو كُـن فيكـون.
خَطَـوتُ خَطـوةً للأمـامِ، المسـافة بيننـا لم تَـزَل بعيـدة، بـلا مقدمـات نَبَتـت فيهـا آلاف الأشـجار خـضراء نَديّـة يَانِعَـة، قطوفهـا دانيَـة، تتـدلى ثمراتهـا كَـمَا يتـدلى الأمـل في خيـالاتِ العصـاة المَارقـين، أجّلَـت عِنَاقِهـا، مَـدَدت يـدي لأقطـف ثمـرة، تفاحـة كانـت، مـن بـينِ فـروعِ الشـجرة أطَـلّ وَجَهَهَـا الأبنـوسي كقمـرٍ خريفـيّ بـين فـروعِ الأجمَـة، قالـت لا تفعـل إنهـا محرمـة عليـك. أمسـكت بالتفاحـة بـين أصابعـي، قالـت لا تفعـل إنهـا محرمـة عليـك. قضمـت مـن التفاحـة مـا وسـع فمـي، قالـت لا تفعـل إنهـا محرمـة عليـك. مضغـت مـا قضمـت في تلـذذ غيـاظ، قالـت لا تفعـل إنهـا محرمـة عليـك. هممـت بإبتـلاع مـا مضغـت، قالـت لاتفعـل إنهـا محرمـة عليـك. أغمضـت عينـي وإزدردتـه دفعـة واحـدة، جـاءني صوتهـا مضطربًـا مترنحًـا كخطـواتِ السّـكارى في بواكـير الصبـاح: أنـاااا محرمـة عليييييـي.....

مـادت الأرض تحـت أقدامـي، ولم تقـو سـاقاي عـلى حمـلي، الأرض هربـت مِـن تَحتـي وتركتنـي مُعَلَّقًـا بَـين السـمواتِ والأرض، تَلاحَقَـت الأنفَـاس، ضَـاق الصَّـدر، عَـلَا اللُّهَـاث، زَاَغ البَـصر، ارتجفـت الأوصَـال وَجَفَّـت العـروق.

ثـم: يييييك. اكتملت جملتها.

حاولـت لملمة أطرافي الخؤونة، أدهشـتني!!!، كانت ملتئمة.

حركـت بـصري ذات اليمـين وذات اليسـار في أرجـاءِ الغُرفَـة البـاردة، الضـوء المتلصـص الوقـح صفعنـي بقـوةٍ ومـضى.

عـــــروج

فتحنا عيوننا و نحن أطفال أشقياء على وجوده، لا يعرف أحد من أين ولا متى جاء، لا كيف ولا لماذا، هو هناك وكفى. يجلس القرفصاء، تتصالب ساقاه، قدماه العاريتان تواجهان الرّيح في غدوها ورواحِهَا، أمامه إنَاء أفرغ من فؤاد أم موسى، يمرّ بجانبهِ السَّابلَة و العَابرون والمتسكعون، يلقي بَعضهم نقوداً تصل في قاعِ الإناء صَليل السيوف في مبارزات فرسان القرون الوسطى، البعض يرمي قطعاً من الخبز وبقايا الطعام، يحتوي الإنّاء قطع النقود وبقايا الطعام من مطلعِ الشَّمس إلى مغيبها، لا تمتَد يَده إلى شيء مِمّا في الإناءِ.

آخر من يخرج من السّوق يتركه في ذاتِ المكان ذي التفاصيل المبهمة، أول الداخلين يجده في ذات الجلسة التمثالية الصامتة، حوله تتناثر بقايا طعام وفاكهة لا قبل لهم بها، لا يعلمون متى ولا كيف جاءت فاكهة الشتاء في الصيف ولا فاكهة الصيف في الشتاء، المارة من حوله يرمقونه بنظرات مرتابة يتمتمون: سبحان الله.

في جلستهِ تلك، حين ينقطع المارة و الباعة المتجولون

والمتسكعون والسكارى من طرفِ السوق في هزيعِ اللَّيل الأخير، يهجع، يهجع الجسد المُضنى بِحملِ آلاف السنين، تنطلق الروح في فضاء الكون الواسع، لا أرض ولا سماء، الجهات الأربع تصبح ست، شمال ويمين وأمام وخلف ثم فوق و تحت! يصبح فلكاً يدور في منظومة لا يعلم مبتداها أحد، ولا يعرف منتهاها أحد، يغشى نواح ومجاهل ما إرتادها إنس ولا جان، يدور مع الأفلاكِ يلقى خلقاً وأقواماً، يلقونه بالترحابِ والتبجيل، يناجيهم و يناجونه، يفيضون عليه مما تجود فراديسهم ويقص عليهم وبال أرضه، حين تتقاطع أضواء دنياه السرمدية مع آشعة أنوار دنيانا الفانية، يؤوب إلى مجلسه، مقرفصًا كساحرٍ هنديّ يسترزق مِن رقصِ الحَيّات والأفَاعِي، تتقاطع سَاقَاه، قدمَاه العَاريتَان تواجهان الرّيح في غَدوهَا ورواحها. الجّسد في مجلسهِ المُعتاد، ابتسامةٌ موناليزيةٌ ترتسم على الوجه المكدود بحملِ آلاف السنين، الرَّوح بين الأفلاكِ تدور فلكاً، الأفُق الكونيّ يكتسي ألوان قَوس قزحيّة، بهيجة مبهرجَة متداخلَة، الكَون كان بهيجًا بالألوانِ، نفسه خالجتها الأمنيات، عَسَى ولعل ثم لَيت، تماوَجَت ألوان قوس قزح واستعادت ترتيبها من جديدٍ، الأحمر حل إطارًا و البنفسج تكور أقرب لمركزِ الدّائرة عِند منُحنَى القَوس الدّاخلي.

زفَر الكّون آهةٌ حَرَى ظَنّها أهل الأرض زلزالاً، خرجوا يستطلعون الأمر في جَزَعٍ فاضحٍ، وجدوه في جلسته

التمثاليـة الصّامتـة، سَـاقَاه تتقاطعـان، قَدَمَـاه تواجهـان الرّيـح في غدوهـا ورواحهـا، مقرفصًـا كسـاحرٍ هنـدي يَكسَـب رزقـه مـن رَقـصِ الحَيّـات والأفَاعـي، تَكسـو وجهـه ابتسـامته المونـاليزيـة، ابتسـامته تلـك مـا عرفـوا سرهـا ولا فَكّـوا طلاسـم غموضهـا، عنـد ناصيـة الكـون الأسـمَى، حيـث اللّـوح الـذي يحمـل سِرّ جوهـر الوجـود وروزنَامَـة الخلـود الأبـديّ، بقـولِ كُـن فيكـون انمحَـى سـطرٌ مكتـوبٌ منـذ مجيئـه لتلـك الديـار وانكتـب سـطرٌ جديـدٌ: لَـه مـا يريـد كيـف نريـد..

الـرَوح هبطـت في لا مـكانٍ و لا زمـانٍ مِـمّا نعـرف، في زمـانٍ ومـكانٍ مِـمّا هـو مقـدرٌ في اللـوحِ الـذي يحمـل السّر، اسـتقرت حيـث أُريـد لهّـا أن تكـون.

الجسَـد مُقَرفـصٌ عنـد طـرف السّـوق، سَـاقَاه مُتقَاطعـان، قدمـاه عاريتـان تواجهـان الريـح في غدوهـا ورواحهـا، بعضهـم ألقـى إليـه نقـوداً لهـا صليـلٌ كأجـراسِ الكنائـس، البعـض ألقـى إليـه طعامـاً مـما تبقـى في موائـدِ اللئـامِ، حـين طلعـت شمسُـنا لم يلـق أحـد بـالاً للجلسـةِ الصنميـة كعـادةِ مَـن يدخـل السـوق بَاكِـراً، تَـوالى دخـولُ النّـاس للسـوقِ كالمطـرِ في بواكـيرِ الخَّريـفِ، عِنـد الغَسـق، بـلا مقدمـاتٍ سَرَى بينهـم همـسٌ، همـسٌ قـاد لهمـسٍ قَـاد لهمـسٍ، سرى بينهـم كالنـار في الهشـيم، توافـدوا نحـوه، أحاطـوا بـه، سـاقاه متقاطعـان، قدمـاه عاريتـان تواجهـان الريـح في غدوهـا ورواحهـا كسـاحرٍ هنـدي يقتـات مـن رزقِ يجلبـه رقـص الحيّـات و الافاعـي، توافـدوا، تكاثـرت أعدادهـم، تدافعـوا بالمناكـبِ ينظـر بعضهـم

فـوق أكتـاف بعـض، مـن بـين أصواتهـم التـي تتعـارك في فـوضى طفوليــة، ســمعوا قــولاً لم يعرفــوا قائلــه: المــوت حــق، سرت همهمتهــم، المــوت حــق، المــوت حــق، المــوت حــق.
كفـن مـن طـرف السـوق و شـبر في المقابـر، قـبروه عنـد طـرف المقـبرة.
الجســد الــذي كان يجلــس مقرفصــاً كســاحرٍ هنــديّ، يقتــات مــن رقــص الثعابــين، قدمــاه عاريتــان تصــدان الريــح في غدوهــا و رواحهــا، يرقــد الآن عنــد طــرف المقــبرة، الــروح ألقــت نظــرة نحــو المــكان الــذي ألفتــه، حملــت قبضــة مــن تــراب الفراديــس العلويــة وضعتهــا مــكان الجلســة التمثاليــة الصامتــة، أودعــت فيهــا بــذرة مــن ســدرة المنتهــى تنتظــر خلاصهــا الأبــدي، بكــن فيكــون.

مَطَـــــــرُ الــــــورد

جلســت و أمامــي مرســمي، الدخــان يتصاعــد مــن الغليــون، آنيــة القهــوة والأكــواب الفارغــة تتحكــر فــوق المنضــدة في فــوضى، البيريــه يعلــو هامتــي المتغضنــة، الفرشــاة والألــوان والأحــلام الكبــيرة مبعــثرة في نظــامٍ فوضــويّ، كلــما غمســت الفرشــاة في الألــوان أمســكت آلاء- ابنتــي ذات الســنوات الأربــع- بيــدي في عنــادٍ طفــوليّ حَميــم، قُلــت بــودٍ أبَــويّ يُمَازِجــه ضيــق: مــاذا تريديــن؟ قالــت وردةً حمــراء! قلــت ليــس لــدي وردة حمــراء! قالــت ارســمها الآن. قُلــتُ حســنًا، شَــمّرت عــن ســاعدي وشَرَعــت أرســم وردة حمــراء.

أنهيــتُ رســم وردة حمــراء، لونهــا يضــج بالنــداوة، ينضــح الطّــل مــن أكمامهــا وحواشــيها، بعــد أســبوعين مــن العمــل المضنــي رأتهــا آلاء، قالــت شــكراً يــا بابــا، وضعتُهــا في إطــارٍ مــن الخشــب المصقــول، حملتُهــا للمعــرض، آلاء ألحّــت في مرافقتــي للمعــرض، جعلــت تــدور وتغــير مــن مــكان وقفتهــا مــرات ومــرات و عيناهــا مركوزتــان في الــوردةِ اللَّوحــة.

افتتــاح المعــرض كان مهرجانــاً لــكل شيء، نســاءٌ جميــلات ورجــالٌ منعمــون و صبيــةٌ وصبايــا بــين الإلفــة والعشــق،

يتناغـون ويتناجـون، العطـر الفـواح والابتسـامات الاسـتثمارية، كامـيرات الإعـلام وأجهـزة التسـجيل، كلهـا كانـت حضـورًا. في اليـوم الثـاني واصلـت آلاء إلحاحهـا وجـاءت للمعـرض، حملتهـا عـلى عاتقـي، تجولنـا في أرجـاءِ المعـرض، عنـد مرورنـا بلوحـةِ الـوردة أشـارت نحوهـا وقالـت أريـد هـذه الـوردة، قلـت هـذه ليسـت وردة، إنهـا لوحـة، غايظتنـي بقولهـا أنـت لا تعـرف شـيئًا، إنهـا وردة، حَدّقـت في وجههـا وَلُـذت بالصمـتِ. أثنـاء حوارنـا جَـاء رجـل يفـوح عطـره وتكتنـز وجناتـه بنـضرةِ النعيـم، أخـذ يحـدق في الـوردةِ اللوحـة، غـير موقـع وقوفـه عـدة مـرات و هـو يحـاول تغيـير زاويـة الرؤيـة، لدهشـتي أخـرج مـن جيـب سـترته دفـتر شـيكات و قلـماً، وقـع شـيكًا وتـرك مـكان الأرقـام فارغًـا، مَـدّ إلي الشـيك و هـو يحـدق في اللوحـة، قـال: أريدهـا هديـةً لإبنـي بمناسـبة عيـد ميـلاده الخامـس! ضـع المبلـغ الـذي يروقـك مـن خمـس أرقـام، ألجمتنـي الدهشـة و عمنـي الذهـول، طفقـت أحـدق في وجهـه الـذي يتـلألأ نضـارةً و نعيـماً، فقـدت تـوازني فاسـتندت لحافـة منضـدةٍ مجـاورةٍ، إنفجـر بـركان مـن غضـبِ آلاء وهـي تزعـق: لا لا لا هـذه الـوردة ليسـت للبيـع! هـذه الـوردة لوليـد!! قلـت وليـد مـن؟ قالـت وليـد، نركـب الحافلـة معًـا و نذهـب للروضـة معًـا ونقتسـم ساندويتشـات الفطـور! حدقـت في وجههـا وانطلـق لسـاني كالعاصفـة وأنـا أفكـر في الرَّقـم الـذي سـأكتبه عـلى الشـيك قبـل تقديمـه للـصرف حيـث لم يسـبق لي إمتـلاك مبلـغ مـن خمسـة أرقـام، لم أمتلـك أكـثر مـن خمسـة أصفـار ليـس

على يسارها سوى الفراغ، قلت غاضباً: هو يأخذ اللوحة ونشتري وردة حقيقية لوليد، قالت في عناد طفولي: لا لا لا، هذه الوردة لولييييد. من بين سيقان الجموع التي تقف تراقب ما يدور نبت طفل خماسي أمسك بيد الرجل الذي ما زالت يده تمسك بالشيك ووجهه تسمر علي الوردة اللوحة و بيننا حوار لم يكتمل، البنت الشقية والولد الذي نبت من بين سيقان الناس، راحا في عناق حميم، هي تهتف: ولييييييد، وهو يهتف آآآلاااااااااء.

أمسكت آلاء بيد وليد وجرّته نحو اللوحة، مدت يدها، لدهشتنا أمسكت بالوردةِ وهي نديّة طازجة يتقطر نداها ويضوع أريجها في أنحاءِ المكان! أنا والرجل الذي يمد يده اليمنى بالشيك، ويسراه تمسك بيد وليد، فغرنا أفواهنا نحدق في الفراغ الذي أعقب خروج الوردة من إطارها، أمسك الصغيران الوردة بين يديهما المتشابكتين وخرجا، نحن لا نزال نحدق في الفراغ!

الرجل قال بصوتٍ متهدج: هذا وليد، ابني الذي عزمت أن أهديه هذه اللوحة الجميلة!

قلت وهذه آلاء ابنتي التي طلبت رسم هذه اللوحة العجيبة!

قال الرجل لقد أنجزت لها طلبها وأنجزت لي ما أريد، أُكتب مبلغاً من ستةِ أرقام في فراغِ الشيك. ودفع بالشيك لجيبي وخرج لا يلوي على شيء.

عدلت وضع البيريه فوق رأسي الأصلع، أشعلت الغليون

وسحبت منه أنفاساً أطلقتها كزخات النَّدى، فتلت جانبي شاربي الكث مرات و مرات، رفعت ساعدي الأيسر، تطلعت للساعة وزفرت زفرة حرى، فقد مضى موعد إغلاق أبواب المصارف، وفاتت على فرصة قضاء أول يوم في حياتي و في ملكي مبلغ من ستةِ أرقام، خرجت متثاقلاً أجرجر أقدامي.

لدهشتي كانت شوارع المدينة تعج بالأطفال، أولادًا وبنات، يضجون بالبهجةِ والحبور، يمسكون ورودًا حمراء ذات بهجة تسر الناظرين، وسطهم كانت آلاء تمسك بيد وليد وهما يرتفعان نحو الأعلى، الأعلى، الأعلى، تتبعهم جموع الأطفال، لحظات واكتست المدينة بقبةٍ من الورود، تمسكها أكفهم الغضّة، ورودًا حمراء فواحة العبير. وقفنا ننظر للسماءِ الملائكية، والأطفال يدورون في سماء المدينة، حين مرت آلاء ووليد فوق رؤوسنا فردوا أياديهم يشيرون إلينا ويصيحون: بابا بابا بابا، انطلقت حناجر بقية الأطفال وهم يشيرون لجهات الأرض كلها: بابا بابا بابا، الورود المنطلقة من الأيدي هطلت على المدينة مطرًا، هبط الأطفال بسلاسةٍ كلٌ في جانبِ أبيه، استوقفت سيارة أجرة ودفعت آلاء لجانبي، فقد كان مطر الورد منهمرًا.

طيفَـــــــــها

عَـبّ مـن الكـؤوس قـدر مـا يسـع كرشـه المتهـدل، لاك قطـع أحشـاء الضـأن مغموسـة في الشـطةِ والليمـون وعجينـة الفـول السـوداني المحمـص، كان هـذا في صبيحـةِ يـومٍ خريفـيٍ غائـمٍ، نـام حتـي الظهـيرة، صحـا منهـكاً بفعـلِ أحـلامٍ لم يجـد لهـا تفسـيراً، تطايـرت سـكينة رأسـه شـظايا، تجـرع كـوب القهـوة متمهـلاً، أحـس مسـام رأسـه تنفتـح وخلايـا جسـده تسـتعيد نشـاطها، جلـس يدخـن.

هاتفـه الجـوال أهتـز ثـم أومـض ألـوان قـوس قزحيـة، تطلـع لشاشـةِ الهاتـف، صورتهـا الباسـمة المغنـاج أحتـوت بـصره المكـدود بفعـل السُّـهدِ والسَّـهر، صورتهـا وهـي تغمـز عينهـا اليـسرى تمـلأ الشاشـة طـولاً وعرضـاً، قـرأ الرسـالة، تلـك كانـت شـفرة مشـتركة بينهـما، تعنـي أن أرضهـا البكـر عطـشى تنتظـر مطـره. غمغـم بصـوت متهـدج، منـك الجـمال ومنـي الفحولـة. واصـل يتجـرع كاسـات العـرق ويلـوك حكايتهـما بتلـذذٍ، حـين أغفـت الشـمس والتحفـت رداءهـا القرمـزيّ، نـاداه نداؤهـا مـن وراءِ الحجـب، تحركـت سـيارته مخلفـةً وراءهـا خطـين

متوازيين من السواد اللامع فوق أسفلت المدينة المتجهم. جلسا في مكانهما المعهود و مقعدهما الأثير، هو يدخن وهي تثرثر، متى وكيف ولماذا؟. ظل يتابع خيوط الدخان تتصاعد للسماءِ ثم تتلاشى كآمالهِ القديمة، الدخان والسحاب المتراكم وأضواء الضفّة الأخري انعكست متراقصة فوق صفحةِ الماء الرقراقة ترسم لوحاتٍ سرياليةٍ، وجهها يتجلى باسماً بين الموجات المتكسرة.

رغم يقينه أنها بجواره إلا أنه افتقد حميمية العناق والقبلة السكرى، نداء الغريزة البكر لم يترك له فرصة للتفكير، لدهشتها قام كالإعصار وقفز بخطواتِ متسابقي المائة متر عدوًا، تلقاه وجهها الباسم وذراعاها الممدودان في انتظاره، حين التصقت شفتاه بشفتيها النديتين، ساد الصمت ثوان ثم صعدت الفقاقيع في لحنٍ سيمفوني: بغ... بغ....بغ ثم غابا- جسده المكدود بفعل السهد والسهر وجسدها المرسوم بالأضواءِ والظلال فوق صفحةِ الماء-.

في الصباحِ تلقى القراء الصحف وصورته تتوسط صفحات الملاحق الثقافية، تحت عنوان مثير: انتحار الأديب الكبير «م ص» بعد قصة غرام فاشلة. هي قرأت ما جاء في الصحف من مقرها الأخير، مستشفى الأمراض العقلية والعصبية.

الـبَايـــــــرڪس

أكملت تلميع السيارة، لملمت أشيائي الصغيرة، طفقت أتلفت انتظارًا لزبونٍ جديد، نفحة من العطر المثير ملأت خياشيمي قادتني للإلتفات، كان وجهها باسماً سَدّ عليّ منافذِ الرؤية، احترت كيف لم الحظ عطرها في المرة الأولى، مدّت يدها اليسرى بما يجود به أصحاب السيارات الفارهة لصبية غسيل سياراتهم وبيدها اليسرى، بضة ندية لونها كقمحٍ ريان، تسلمت حزمة المفاتيح، راقبتها وهي تجلس خلف مقود السيارة وقد انحسر ثوبها عن ساق كساقٍ بلقيس فوق صرح سليمان الممرد.

اعجبتني طريقتها في الخروج من موقف السيارات إلى الطريق العام، المبلغ الذي احتوته كفّي اليابسة كان فوق توقعاتي بكثير، ضعف ما يدفعه أسخى من تعاملت معهم، حمدت الله، الآن يمكنني شراء الدواء لأبي، والكساء لأمي، تمتمت في سري: كريم يارب.

تدافعنا نحوها لنفوز بفرصةِ غسيل سيارتها، أشارت نحوي بسبابتها المعقوفة لأعلى. طلاء الأظافر ينسجم

ويتناغم مع حواشي الثوب المطرز وإكسسوار اليدين وكلها تنسجم مع لون الحذاء والأقراط، ذات العطر تجاوز الخياشيم والرئتين إلى مكامنِ الرجولة، لدهشتي، قالت مكتبي هناك وأشارت لمبنى زجاجي فخيم، ومضت، حانت مني التفاتة، كانت تقف عند البوابة الزجاجية ووجها البَاسم، عيناها الساحرتان مركوزتان في وجهي وقد تلاشت المسافة بيننا تمامًا.

لملمت أشيائي، أودعتها طرف الشارع وسرت في خطى وئيدة صوب البوابة الزجاجية، لدهشتي انفتحت من تَلقاءِ نفسها، تنفرد بمكتبٍ فخيم، لا يدخله إلا من تستدعيه، ومن تستدعيه، يضطرب، ينتظر زملاؤه خروجه متوجسين، سطوتها تلمحها في عيون الداخلين والخارجين، قالت لدي عمل تؤديه في البيت؟؟ لهجتها المتسائلة المحرّضة أغرتني بالقبولِ، دَسّت بين كفي ضعف ما أعطتني في المَرةِ الأولى. حتى اللحظة لا أعرف كيف وصلت مبتغاي في محطة حافلات المدينة، صديقي حمل وصيتي للأسرة، بأني مشغول بعملٍ هام خلال عطلة العيد وإفترقنا.

الهاتف الجوال كان وسيطًا ذو جدوى، سيارتها تقف مشمخرة بين مثيلاتها من الصافنات الجياد، عاونتها في تحميل أكداس من المشتروات لم تدع في مقاعدِ السيارة سوى مقعدين، لها ولي، والسيارة تنساب كنسمةٍ خريفية في يومِ ماطر، كان المذياع يهمس: هذه ليلتي وحلم حياتي. البيت شبه منعزل في الحي الأرستقراطي الجديد، بضع

شـجيرات أعطـت البيـت تقييـمًا عاليًـا بـين البيـوت التـي أعرفهـا، الأم ترقـد فـوق سريـرٍ حولهـا هالـة مـن الوقـارِ والسـكينة، خادمـة تجـيء و تذهـب، إلام تسـاءلت عـن الخطـوات الغريبـة في الـدّار، أجابتهـا أنهـا اسـتعانت بصبـي مـن طـرفِ السـوق ليسـاعدها في ترتيـب البيـت اسـتقبالًا للعيـد، جملتهـا انغرسـت في كبريـائي حتـى الحشـا، صبـي مـن طـرف السـوق؟ ياللمهانـة، لـو أنهـا قالـت رجـلاً لـكان ذلـك أقـل مـرارة.

انغمسـت في أداءِ مهمتـي، انتهيـت وقـد تملكنـي الرّهـق، جلسـت أنتظـر قدومهـا لأقبـض ثمـن جهـدي وأنـصرف، جـال بـصري فيـما حـولي، داهمنـي أحسـاس بالرفاهيـة، السريـر الضخـم، خزانـات الملابـس، جهـاز التكييـف، الإضـاءة.

عطـر غامـض أقتحـم وحـدتي، تلفـت حـولي، لم يكـن ثمـة قـادم، انشـغلت بحسـاب مـا أتوقـع قبضـه مـن مـالٍ، غـدًا أنـام مِـلء جفـوني عـن شـواردها، أقـضي أول أيـام العيـد متجـولًا بـين معـارفي، اليـوم الثـاني سـأغيب في أحضـانِ منـى، بائعـة الشـاي، نتقاسـم مـع مـا يجـود بـه أصحـاب الفارهـات لتسـد أفـواه صغـار يطلبـون اللـبن و الحلـوى، انفتـح بـاب الغرفـة وانفتـح معـه دنيـا جديـدة لم أحلـم بهـا.

مـرّت ثـوان قبـل أن أسـتوعب مـا أرى، مهرجـان الألـوان المتراقصـة ونفحـة النسـيم المعطـر حملتنـي لأجـواءِ جنـة الخُلـد، دخلـت، تسـير عَـلَى السـجادِ الفاخـرِ كنسـمةٍ في نهـارٍ قائـظ، عطرهـا حَلّـق بي فـوق السـماء السّـابعة، وقفـت

وليس بيننا سوى الأنفاس، تصاعدت الأنفاس وسرت في بدني كهرباء فوق الاحتمال، مادت الأرض تحت أقدامي، تداخلت صور من الماضي والحاضر، ليلى بنت الجيران، سميرة بنت عمي، منى بائعة الشاي، سهاي الحبشية، زهوة بت الحلب، فاتوماتو بائعة الفول التي دشنت رجولتي وأخريات غابت أسماؤهن وحضرت أجسادهن وطعم قبلاتهن، احتشد العطر والأنفاس والرغبة وهرمونات حفظ النوع البشري في جرعة مضاعفة فإنفجر البركان.

التقينا في منتصفِ المسافة، هي تهم بالجلوس وأنا أهم بالوقوف، أحتوانا السرير وغابت كل معارفنا من الكّلام، فقط أنفاس ولهاث، كنا كسيزيف، ما أن نَصَلَ منتهى الذروة حتى تتدحرج صخرة المتعة للسفحِ فنبدأ من حيث تكون البداية، ما إنتبهنا إلا لشعاعٍ متلصص اخترق الستر، خرجت، جاءت بطعام] إلتهمناه كما تلتهم النار العشب ثم دارت ساقية المتعة، مع حلول المساء قلت لهَا أريد تجهيز بعض لوازم العيد، مدت إلى مظروفٍ وودعتني عند الباب بقبلةٍ، مضيت على وعدٍ العودة ثاني أيام العيد، منى أصبحت جزءًا من الماضي.
حَوَى الظّرف مبلغاً لم أحلم به، عدت ثاني أيام العيد مبكرًا، مظهري ساعدها في كذبةٍ صغيرة في حضرةِ بعض زوار العيد، أدعت بأني زَميل جديد في العملِ، الصالون الفسيح تتنافس فيه الرفاهية مع الترفِ الباذخِ، حين

جلست على الكرسي الذي يشبه العروش، غصت وكأنه كرسي بلا قرار، الصورة المؤطرة علي جدار الصالون تنبيء عن مَجدٍ مؤثل، رَجل في بدلةٍ أرستقراطية، عيناه تحدقان في وجهي مِمّا دفعني لتفاديهما، صورة تجمع ذات الرجل مع امرأة فائقة الجمال في ثوبٍ زفاف يمتد ذيله أمتارًا وراء العروس، مجموعة من الصورِ تحمل ملامح فتاتي منذ ميلادها حتى صباها، السلم للغرفةِ العلويّة مزدان بأصايصِ الورد النديّ والزهور تفتَر ثغورها باسمة.

دارت ساقية المتعة يومًا أو بعض يوم وافترقنا، عاودت عملي المعتاد في وسطِ المدينة، أترقب حضورها لأفوز بفرصة لقائها، أنتظرها لأغسل سيارتها وأجتهد في تلميعها أفوز بما تجود به وتدفع لي ما يسد احتياجاتي، فجأة تغير كل ذلك، أنظر في وجهها فتشيح عَنّي، أحاول الابتسام فتعبس، تتجاهلتني، ثم غابت.

مر أسبوعان ولم تأت، قررت أن أقتحم هروبها وأزورها نهاية الأسبوع، ليلة الخميس هي ليلة العشاق والمحبين وسارقي المتعة، غادرت موقع عملي مبكرًا، تجرعت كأسات من عرقِ البلح وأحسنت اختيار هندامي وعطري، سرت و أنا أدندن باللحنِ المفضّل في جهاز تسجيل سيارتها: هذه ليلتي، مع وصولي منعطف الطريق المؤدي لبيتهم توقفت، كانت صالة أفراح كبيرة تسد الطريق، ظننت أن أحد الجيران يعيش مناسبة سعيدة، تقدمت لمدخل الصالة الأنيق، كان هناك عدد من الرجال وقوفا يستقبلون

القادمين والمهنئين، تجاهلتهم، تجاوزتهم ووقفت مدهوشا أبحلق فيما أرى.
كانت في كامل زينتها في ثوبِ زفاف تجلس إلى جانب رجل وسيم يتهامسان في ود وانسجام، كانت عروسًا في تلك الليلة. خارت قواي ولم أقوى على السير في تلك اللحظة، تماسكت قليلاً وتناولت قارورة ماء من منضدة مجاورة وسط دهشة من يجلسون، استعدت رباطة جأشي، قام العريس و العروس يرقصان، فقدت توازني وزاغ بصري، حين التفت ذراع العريس حول خصرها و التصق خده بخدها الوردي الندي، أطلقت صرخة ضجّ لها المكان:لاااااااااا لاااا سَاد الهرج والمرج واختلط الحابِل بالنابِل، تلقيت بضع لكمات وصفعات ولم أعد أعي شيئًا.
فتحت عيون فإذا حولي وجوه كالحة مكفهرة تنظر تجاهي في غيظٍ وغضب، يتبادلون حديثًا بذيء الكلمات سوقي المعاني، إتّجه بصري للناحيةِ الأخرى، من خلال الباب الحديدي ذي القضبان الغليظة، كان ضابطُ الشرطةَ يأمر بإحضاري أمامه، وقفت أمامه مترنحًا تدور الدنيا في عيوني، أمامه بضع صحف مشتتة بغير انتظام، إحداها تحمل عنوانًا كبيرًا باللون الأحمر: ابن الشمس العاشق يهاجم عروسا ليلة زفافها.

صورة من قاع المدينة

جلسا، قرقوري وشول، مقروران تصطك أسنانهما كعصفورين فاتهما موسم الهجرة من بلادٍ يكسوها الجليد، أسندا ظهريهما للحائطِ الحجري القاسي، فتح لفافة فيها بقايا طعام و بقايا شراب، أيديهما تروح و تجيء بين الأفواه واللفافة وكأنها آلات في مصنعٍ بدائي، مدّ يده يلمس بطنها الذي تكور بين فخذيها المنفرجين إلا أنها صدته وهي تقول: ابن الزنا يقلق راحتي، أظنه ضاق بالراحة و يريد الخروج للشقاء و العنت، ابتسم ودس في فمها لقمة أحسن تكويرها.

* * *

في ذات اللحظة، جلست أسرة موسرة على بعد أمتار في شقة في طرفِ السوق وبداية الحي السكني الذي تآكل بفعل زحف المتاجر والحوانيت، تتفرج على نشرة الأخبار في شاشةِ التلفزيون من المحطةِ الوطنية، الوزيرة الوسيمة الباسمة تتحدث عن مجهودات وزارتها للقضاء على ظاهرة التشرد وقد ظهر إلى جانب الوزيرة بعض المشردين متحدثًا عن التحاقهم بالمدرسة وبعضهم عن التحاقهم

بـــورش ومراكـــز يتعلمـــون فيهـــا صنعـــا و حرفـــا تقيهـــم شر الفاقـــة ومذلـــة الســـؤال.

* * *

في ذات اللحظـــة، كانـــت الجلســـة الختاميـــة لورشـــةِ عمـــل دور منظـــمات العمـــل الطوعـــي والإنســـاني في معالجـــة التـــشرد والمتشرديـــن، تســـلمت ذات الوزيـــرة التـــي جـــاء ذكرهـــا في نـــشرة الأخبـــار توصيـــات الورشـــة حـــول أســـباب التـــشرد وكيفيـــة العـــلاج، وســـط أضـــواء كاميـــرات التصويـــر الفوتوغـــرافي والتلفزيـــوني توجـــه المشـــاركون و المدعـــوون لمائـــدة عمـــرت بأصنـــافِ الطعـــام والـــشراب والتـــي قَـــدر أحـــد الحضـــور قيمتهـــا بمـــا يكفـــل لخمســـين متـــشردًا عيشًـــا كريمًـــا لمـــدة عـــام عـــلى أقـــل تقديـــر.

* * *

عنـــد منتصـــف الليـــل أيقـــن قرقـــوري أن مـــا تعانيـــه رفيقتـــه يتطلـــب تدخـــلا مـــن طـــرف ثالـــث، وَسَـــدها قطعًـــا مـــن الـــورق المقـــوى وخرقًـــا، وضعهـــا فـــوق طوبتـــين، ذهـــب يبحـــث عـــن عـــون عنـــد رهطـــه مـــن المشرديـــن في طـــرفِ الســـوق الآخـــر. لدهشـــته وجـــد المـــكان خاليًـــا إلا مـــن آثـــار تقـــول أن القـــوم قـــد رحلـــوا، لم يـــدر أرحلـــوا طوعًـــا أم قـــسرًا. تلفـــت يمنـــة ويـــسرة ولم يســـتبن شـــيئًا يقـــول أيـــن توجهـــوا، تقهقـــر ليعـــود مـــن حيـــث أتى، إلا أن ضـــوءًا كاشـــفًا داهـــم بـــصره مـــما أفقـــده الرؤيـــة وصـــوت آمـــر يقـــول: قـــف ولا تتحـــرك. أيقـــن بالكارثـــة،

انعطف يسارًا و أطلق ساقيه للريحِ، بلا مقدمات وجد نفسه محاطًا بجحفل من شرطةِ الخيالة في نوبةٍ ليلية، استوقفوه، حاول شرح موقفه ولكن بلا مقدمات توقفت سيارة دفع رباعي بصورة سينمائية وقفز منها بضع جنود مدججون بالعصى والبنادق وقبل أن يتبين ملامحهم أوسعوه ضربًا بأعقابِ البنادق وصفعا وركلا بالأقدام وكأنما بينه و بينهم ثأر دفين، سقط مضرجًا بدمه، حملته سيارة الشرطة ذات الصفير الجهنمي إلى المخفر، وجهوا له تهمة التشرد والشروع في السرقة ومقاومة الشرطة واقترح بعضهم تهديد الأمن و تقويض النظام.

* * *

الداخلون للسوق في الصباح، فوجئوا بها تستند الى الحائط الحجري وفي حجرها وليد يناغي، حولهما بركة من الدم والمخاط، حملها بعض ذوي المروءة للمستشفى الحكومي، استقبلتها شرطة المستشفى ودونت في وجهها تهم قضايا التشرد والزنا وتعريض طفل للخطر، لم تفهم من قولهم شيئًا، جلست تحتضن وليدها الذي يجتهد يمصُّ ثدييها بحثًا عن قطرةِ لَبن.

انتهى بها الأمر نزيلة في سجن النساء!

صبيحة اليوم التالي خرجت الصحف تحمل ملفًا عن جهود الوزارة ومنظمات المجتمع المدني في مكافحة ظاهرة التشرد.

بشايـــــــــر

أيووووييـوي يـوي يـوي يـوووووي، هكـذا انطلقـت الزغـرودة الريانـــة الطروبـــة مـــن كـــوخ أم بشـــاير، كـــوخ مـــن الطـــين والخيــش و الــورق المقــوى والصفيــح وأشــياء أخــري يســتحيل فرزهــا و معرفــة أصولهــا، كــوخ يتوســط حيًــا أرســتقراطيًا أقــل مبانيــه مــن السيخِ والطــوب والأســمنت يرتفــع طابقــين، بعضهــا يشــمخر لســبع طوابــق، حــي يســكنه نــاس تبــدو النعمــة في وجوههــم ويكســوهم النعيــم حــلاً وترحــالاً، عــدد الســيارات في كل بيــت ربمــا يفــوق عــدد ســاكنيه.

الزغـــرودة الطريّـــة الناعمـــة اســـتوقفت المَـــارة والفضوليـــين والعـــمال الذيـــن يروحـــون ويجيئـــون بـــين البيـــوت ومراكـــز التســـوق في الشـــارع الرئيـــسي، ثـــم أطلّـــت وجـــوه نـــضرة مـــن خـــلال النوافـــذ المشرعـــة والشرفـــات العاليـــة تســـتطلع مـــا يجـــري في ترقــب ودهشــة. إزداد اســتغراب الجميــع لمنظــر امــرأة عليهــا ســيما الشــقاء و المكابــدة، تعتــصر فتــاة في حضنهــا ثــم تدفعهــا بعيــدا تتمــلى وجههــا ثــم تعتصرهــا مــرة أخــرى وهــي تمســك

كتفيهـا وتهزهـا ووجهيهـما تكسـوهما الدمـوع، تسـكب في نظراتهـا حنـان الدنيـا كلـه ثـم تعـاود احتضانهـا وتبـكي. بـين الدمـوع الهاطلـة مـر شريـط عمـره ربـع قـرن مـن الزمـان.

* * *

أم بشـاير، لا تـزال تذكـر تلـك الليلـة، الليلـة البـاردة المطـيرة حـين وطئـت أقدامهـا الخرطـوم لأول مـرة، الشـهر كان أغسـطس، السـحاب وأحزانهـا متراكـمان، أضـواء محطـة السـكك الحديـد وعجلـة المغادريـن واختـلاط الحَابِـل بالنَّابِـل، كل ذلـك أربكهـا، فجلسـت تحتضـن ابنتهـا ذات السـنوات الأربـع، تحـاول حمايتهـا مـن زخّـات المَطـر، تمتمـت في اسـتغراب: هـذا المطـر تـرك المراعـي والمـزارع ومنابـت الشـجر وجـاء للمدينـة حيـث لا يحتاجـه أحـد؟؟

انـصرف الجميـع مـن محطـةِ السّـكك الحديـد ولم يبـق سـوى بعـض رجـال الشرطـة والمتسـكعين وبعـض العاملـين في إصـلاح وتجهيـز القطـار وتهيئتـه لرحلـة جديـدة في غَـدٍ أو بعـد غـد. أحكمـت احتضـان ابنتهـا المقـرورة، الجائعـة، الباكيـة وتكـورت في جلسـتها تراجـع مـا قاسـت مـن أهـوالٍ حتـى لحظتهـا الراهنـة، مـرت بذاكرتهـا سـنوات الجفـاف وسـنوات المجاعـة، وسـنوات الحـرب، النهـب المسـلح والنهـب المصلـح، تعديـات الرعـاة، تفلتـات المزارعـين، فقـدت نصـف أسرتهـا في سـنوات الجفـاف والمجاعـة بمـن فيهـم أباهـا وأخاهـا و فقـدت النصـف الباقـي بمـن فيهـم زوجهـا بفعـل هجـمات النهابـين الذيـن اسـتهدفوا مـا تبقـى مـن ماشـية وأنعـام. وجـدت نفسـها

وحيـدة بـلا سـند، لا أب ولا أخ ولا زوج، ليـس معهـا سـوى إبنتهـا بشـاير، وأخ بالخرطـوم ولكـن كيـف الوصـول إليـه؟؟؟ القطـار كان الوسـيلة الوحيـدة المتاحـة لمـن يرغـب في السـفر، أيقظهـا سـؤال الشرطـي المفاجـيء مـن شرودهـا، مـن تكـون ومـاذا تريـد وإلى أيـن تتجـه؟ هواجسـها حيـال أهـل الخرطـوم تزايـدت وهـي تنظـر في وجـه الشرطـي، أجابـت أنهـا تريـد الوصـول لشـقيقها، إجابتهـا فاجأتهـا بأسـئلةٍ جديـدة مـن طـرف الشرطـي: أيـن يسـكن ومـاذا يعمـل؟؟

إرتباكهـا و حيرتهـا اسـتدرا عطـف الشرطـي، فصحبهـا إلى داره، أيقنـت أنّهـا لـن تلتقـي شـقيقها، همـس بعضهـم في أذنهـا أنـه ربمـا تـرك المدينـة والتحـق بإحـدى حـركات النضـال في أحـراش الإقليـم المضطـرب بأمـل تعديـل موازيـن تقسـيم الـثروة والسـلطة، فـزاد إرتباكهـا، كان ذلـك ضمـن مغاليـق الـكلام الـذي تسـمعه لأول مـرة، تعرفـت عـلى بعـض أهـل منطقتهـا الذيـن سـبقوها للمدينـة فتضامنـوا معهـا، دبـروا أمرهـا بحيـث تنتقـل لحراسـة أرض فضـاء وسـط حـي سـكني راقـي، انتقلـت تحـرس الأرض الفضـاء مـن تعديـات الآخريـن و تصـد عنهـا نفايـات الجـيران.

ظلـت تتنقـل نهاراتهـا كلهـا بـين البيـوت، برفقـة ابنتهـا بشـاير، لا تسـتقر عـلى حـال، تعمـل يومًـا أو بعـض يـوم وتغـادر، تعمـل أسـبوعًا أو بعـض أسـبوع ثـم تغـادر، فهـي لا تحسـن صنـع شيء مـما يحتاجـه هـؤلاء القـوم المترفـون ولا مطلوبـات العمـل في بيوتهـم أو رغائـب أنفسـهم، لا تعـرف

كيف تطبخ طعامهم ولا كيف تغسل ملابسهم وتكويها ولا كيف تنظف غرفهم وصوالينهم.
دفعتها الحاجة، فاحترفت بيع الفول المدمس وحب البطيخ المحمص وبعض الفاكهة البرية من أمام بوابة مدرسة الحي الراقي، وجدت بعض النفور ممن سبقنها ولكنها تمكنت من كسب ودهن بتعاونها وطيبتها الريفية الساذجة وحسن عشرتها، تجلس أمام البوابة الضخمة فيتسارع الصغار يطلبون ما تبيع، ابنتها تجلس منطوية تبحلق في الوجوه الندية الريانة التي تتبدى النعمة من سيماها، تتساءل الصغيرة في براءة: ماذا يفعلون في الداخل ثم تضيف: ليتني كنت معهم.
في يوم و مع انشغال الأم بالبيع، تسللت الصغيرة ذات الوجه الأسمر المستدير والعينين الزائغتين لداخل المدرسة وأخذت تجول بين الفصول والمكاتب، أنتبه بعض المدرسين والمدرسات لطفلة تسير بخطوات متكاسلة بين الفصول فاغرة فاها، سألوها عن اسمها قالت بشاير، سألوها عن ابيها قالت أبو بشاير، سألوها عن أمها قالت أم بشاير فانفجروا ضاحكين، تعرف عليها بعضهم، سألوها ماذا تريد؟ قالت أريد أن أكون مثل هؤلاء الأولاد و البنات! تفاكروا فقرروا إلحاقها بالمدرسة، تكفل بعضم بطعامها وبعضم بكسوتها وآخرون ببقية احتياجات المدرسة، لدهشتهم أبدت رغبة و تفوقًا ملحوظًا فقرروا تطوير الفكرة لصندوق.

دخلت المرحلة الثانوية متفوقة، صندوق دعمها أضحى منظمة ترعى أمثالها من الفقراء النابهين، الأم تواصل كدها وهي تواصل تفوقها حتى دخلت كلية الطب.
أحد مستجدي النعمة في الحي أتّخذ من عداوة أم بشاير تسلية، حرّض الشرطة ضدها فشهد أهل الحي بسمو أخلاقها، حاول استعداء أهل الحي فشهدوا لصالحها، يزيد غيظه فقرها في جواره و تفوق ابنتها و خيبة أولاده وبناته!!.

* * *

في تلك اللحظات، بشاير وأم بشاير تبكيان متماسكتين والجمع من حولهما يتزايد، وصل فوج من السيارات عليها شعار منظمة بشاير الخيرية تحمل جموعًا من الطلاب والطالبات والخريجين، جاءوا يهنئون بشاير وأمها بمناسبة تخرجها وحصولها على أرفع جائزة يحصل عليها خريج.
في ذات الوقت علا صراخ وضجيج من بيت مستجد النعمة الذي يشمخ فوق البيوت، البعض يصرخ يطلب النجدة والبعض هرع للشارع يطلب العون، بشاير تركت الكل في حاله واندفعت تجري وراء من يطلب النجدة، الرجل الذي أحترف مضايقة أمها، مكوم فوق سرير يلهث، يتدلى لسانه والزبد الأبيض يتفطر من بين أسنانه، نبضه غير منتظم وجسده بَارد، بشاير طلبت نقله لإحدى السيارات التي جاءت تبارك نجاحها، ومن أمام الكوخ انطلقت

السيارة للمستوصف الفخيم في وسط المدينة.
يومان وأفاق الرجل، في البدءِ لم يصدق ما يراه، إلا أن حديث الطبيب الكبير الذي يتولى شئون الأسرة، بعد أن راجع أوراق الفحوصات وصور المسح الضوئي والميغناطيسي: لولا قدرات ومهارة الدكتورة بشاير وسرعة تصرفها في أول تجربة عملية لها لواجهنا وضعا حرجا للغاية! الحمد لله مرت الأوقات الحرجة، وستتولى الدكتورة بشاير متابعة حالتك مع بقية الفريق الذي يتابع حالتك الصحية.
الرجل الذي يرقد هامدًا بلا حراك فاضت عيناه بالدموع، أمسك بيد الدكتورة بشاير يقبلها، وهو يقول: عذرًا يا بنتي، سامحيني!!
نظرت في وجهه مليًا وخرجت.

المحـــــاربان

ولدنـا في الحـي المخصـص لسـكن الجنـود، متعتنـا ونحـن صغـار كانـت مراقبـة طوابـير الجنـود، نسـير وراء الفرقـة الموسـيقية وننتـشي بألحانهـا وننـسى كل شيء، نصنـع مـن فـروع الاشـجار ومخلفـات إطـارات السـيارات المسـتهلكة نبـالا نوجههـا للطيـور التـي نطاردهـا حتـى تخـوم مطـار المدينـة الـذي نخـال أن وراءه الدنيـا الجديـدة، أحيانـا نوجـه نبالنـا الـرؤوس و أجسـاد بعضنـا فتنشـب معـارك ومعـارك.

بـلا مقدمـات إمتـلَأ المطـار بالطائـرات مـن كلِ الأحجـامِ، تفـرغ مـا في جوفهـا مـن الجنـودِ والعتـاد ثـم تغـادر عـلى عجـل، طرقـات المدينـة تغـص بالـزّي الـكاكي وينـوء ترابهـا بالأحذيـة الجلديـة الثقيلـة، قالـوا لنـا إنّهـا الحـرب، عجبنـا وتسـاءلنا مـا الحـرب، لم نجـد للسـؤال إجابـة.

في صبـاحٍ مطـير كثيـف الغيـوم يضـج رعـده ويـزأر، ولولـت أمـه باكيـة، مَـات أبـوه في جبهـةِ القتـال، وقفـت مشـدوها أحـدق في وجههـه اليابـس المعـروق يكفكـف دمعـة كالجمـر. مـضى عـام أو بعـض عـام، ولولـت أمـي، صـورة الضابـط ذي

النجمتين فوق كتفيه يتلو عليها الفجيعة، ثم سيارة صغيرة فوقها ثلة من الجنود، طرحوا شيئا من السكر والدقيق والزيت ومضوا، حلت بنا الكارثة. تصبب العرق من وجهي اليابس المكدود، الشلوخ الأفقية الخمسة التي تحتل المسافة بين الحاجبين ومنابت شعر الرأس شتتت العرق مسارات شتى، حاولت مرات ومرات إزدراد ريقي ولكن كأنما كتلة من الملح تسد مداخل فمي. لذت بالصمت و الناس من حولي يضجون بالبكاء.

* * *

دائما نكون معاً، نجلس متلاصقين، لا يُرى أحدنا إلا في معية الآخر، هو يحب بوب مارلي، يحفظ أغنياته و يترنم:THGIF EHT POTS TNOD ETINU ACIRFA أنا أحب أحمد المصطفى و أترنم: أنا ابن الشمال أسكنتو قلبي وعلى ابن الجنوب ضميت ضلوعي، نغني كلانا في وقت واحد ونرفع عقيرتنا بالغناء فلا يفهم أحد من السامعين شيئًا.

* * *

الحرب لامست أطراف المدينة، الطائرات تخترق سماء المدينة عشرات المرات في اليوم مخلفة دخانًا وأزيزاً صَارخَاً تتبعه نظرات قلقة ملتاعة في عيون الكبار وابتسامات متسائلة في عيون الصغَار.

امتلأت طرقات المدينة بحواجز التفتيش التي تنبت بغير

بـذرة، يسـألك الجنـود المدججـون بالوقاحـة مـن أنـت ومـن أيـن جئـت وإلى أيـن تذهـب، ربمـا أدّى تعنتهـم لتقـضي ليلتـك إلى جانبهـم تحـت وابـل المطـر الإسـتوائي الـذي لا يكـف عـن الهطـول إن لم يسـعفك الحـظ بمـرور أحـد معارفـك مـن سُـكّانِ الحـي.

* * *

ذات فجـر اشـتعلت سـماء المدينـة فـوق رؤوسـنا، اللهـب والدخـان والضجيـج ودوي القنابـل وتسـاقط المقذوفـات والاشـلاء و القتـلى والـدم و الشـظايا المتطايـرة تكتـب سـطراً في دفـتر مأسـاة كـبرى اسـمها الحـرب، انفتحـت أبـواب جهنـم عـلى مصاريعهـا، الهجـوم كان محكـماً وعنيفـاً، انفـرط عقـد المدافعـين عـن المدينـة فهربنـا كل الى حيـث سـاقته غريزتـه، ألفيـت نفـسي مـع ثلـةٍ مـن الهاربـين عنـد طـرف الجبـل، لا أثـر لأمـي ولا إخـوتي، جاءونـا بـشيء مـن الطعـام يفتـح شـهيتك ولا يشـبعك! بعدهـا قدمـت أوراقـي للتجنيـد، أكملـت التدريـب وأصبحـت قناصًـا، بندقيتـي ذات منظـار أرى مـن خلالـه وجـه ضحيتـي، يحـدد قائـد المجموعـة ضحيتـي، أنتخـب مـكان إصابتـه وهـو غافـل، خضنـا معـارك كثـيرة، كثـيرة جـداً. في إحـدى موجـات الكـر والفـر أقمنـا معسـكرًا عنـد الشـاطئ، فوجئنـا بهـم في الضفـة الأخـرى، إكتشـفنا أننـا في مرمـى نـيران بنادقهـم، تراجعنـا مسـافة محسـوبة مـع تشـديد التعليـمات بعـدم الإقـتراب مـن النّهـر، الثـأرات تقـول إنهـم هـدف مـشروع لنـا وأنّ نسـترخص كل رصاصـةٍ تسـكن

جسـد واحـد منهـم.
يسـكن الكـون عنـد مغيـب الشـمس، التعليـمات تشـدد عـلى عـدم الإقـتراب مـن النهـر، شـهور ونحـن نجمـع مـاء المطـر لنـشرب ونسـتحم و نغسـل ملابسـنا رغـم أن النهـر عـلى مرمـى نـيران بنادقنـا.
اسـتبد بي الشـوق لمـاء النهـر، لطفولتـي وصبـاي حيـث نقـضي عـلى الشـطّ أكـثر مِـمّا نقـضي في بيوتنـا، عـسى ولعـلّ أسـتعيد بعـض حيويتـي، قبيـل الفجـر تسـللت حاملاً بندقيتـي صـوب الشـط، بندقيتـي الأثـيرة توسّـدت كومـة ملابـسي الشـحيحة، ألقيـت نفـسي في مـاءِ النهـر البَـارد، اغتسـلت واغتسـلت واغتسـلت، أحسسـت كأني ألقيـت حمـلاً ثقيـلاً عـن كاهـلي، فتحـت عيـوني فرأيـت السـماء غـير السـماءِ والشّـجر غـير الشـجر، انسـاب لمسـمعي صـوت العصافـير و القـماري وكأني أسـمعه لأول مـرة، طفقـت أتنفـس عميقـاً عميقـاً، في لمحـة خاطفـة اسـتعدت شـيئا مـما مـضى، كأننـا نجلـس معًـا متلاصقـين هـو يغنـي بـوب مـارلي و أنـا أسـتعيد أحمـد المصطفـى.
سَرَت مـن الشّـط المقابـل همهمـة، غـاص جسـدي كلـه تحـت المـاء فقـط بقـي رأسي وعينـاي ترقبـان الضَّفَـة الأخـرى، ثلـة منهـم، الأوغـاد وردوا النهـر، أحدهـم ارتكـز متحفـزًا في وضـع الاسـتعداد وأصابعـه عَـلَى الزنـاد، الآخـرون خلعـوا ملابسـهم نزلـوا إلى المـاء يبـتردون، سـحبت جسـدي مـن المـاء، زحفـت حتـى بلغـت كومـة الملابـس، أمسـكت البندقيـة وأحكمـت

تصويبهـا نحـوه وهـو يقـف متحفـزًا في وضـع الاسـتعداد، اخـترق سـمعي صـوت لا أدري مـن أيـن، يترنـم بمقطعـه الأثـير:

THGIF EHT POTS TNOD ETINU ACIRFA

سَرَت في جسـدي قشـعريرة، رَكّـزت بـصري خـلال المنظـار وأصبعـي السـبابة عـلَى الزنـاد، صعقنـي وجهـه مـن خـلال المنظـار، إنـه هـو، وجهـه صـارم وكأنـه قُـد مـن جلمـود صخـر، العلامـات التـي تشـبه الزيتـون تنتـشر بعـرض جبهتـه كبيـادق الشـطرنج، بـلا مقدمـات ارتفعـت عقيرتـه بالمقطـع الأثـير مـن أغنيـة بـوب مـارلي، دون تفكـير وبـلا إرادة صحـت: لالالالالالالا.

وأطلقـت سـاقي للريـح، لالالا تـرددت في أرجـاءِ الفضـاء فجـاء صداهـا مـن الجهـات الخمـس يترنـح لالالالا، وطفـق هـو يطلـق الرصـاص يتعقبنـي، أمـام كـوخ القائـد خبطـت رجـلي اليـسرى، بندقيتـي ذات المنظـار في يمينـي وصرة ملابـسي بيسـاري و جسـدي عـارٍ ينـز مـاء النهـر مـن أطرافـه، فتحـت عيـوني كعائـدٍ مـن رحلـةٍ فضائيـة ألفيـت رفاقـي يحيطـون بي محدقـين وعيونهـم تخـترق جسـدي النَّحيـل كطلقـاتٍ مدفـع رشـاش.

القمـــر فـــي ســـاحـــة بيتنـــا

أمـي تقـضي سـحابة يومهـا أمـام بوابـة المدرسـة، تبيـع حـب البطيـخ والفـول المدمـس والطعميـة وأشـياء أخـرى مـما يسـتهوي التلاميـذ، تتجمـع في حجرهـا عمـلات معدنيـة كثـيرة، تأتينـا باللـبن و السـكر ووجبتـي الفـول، أنـا وأختـي الصغـيرة، نقـضي سـحابة يومنـا نتجـول وسـط الحـي الأرسـتقراطي الراقـي الـذي تشـمخ أسـواره كأنمـا تتصـدي لعفاريـت الجـن ومـردة الشـياطين، تبهرنـا البيـوت العاليـة، يفـوح منهـا نـدى الـورود والزهـور، نجمـع مـا تلفظـه البيـوت الشـامخات، نـأكل بعضـه ونمـص بعضـه ونلعـق شـيئا لا نـدري كنهـه، نتلـذذ بمـا يسـتغني عنـه القـوم الذيـن يتطلعـون نحونـا مـن وراء السـتور، نحمـل معنـا للبيـت أشـياء نقـضي بقيـة يومنـا نتجـادل مـا هـي.

نسـكن عشـة مـن الحديـد والخـرق والخيـش والـورق في طـرفِ قطعـة أرض غـير مشـيّدة وسـط الحـي الـذي نبـت كالفطـر ينبـيء عـن ميـلاد حفنـة مـن أثريـاء الغفلـة، تجاورنـا مـن

الـشرق قطعـة أخـرى غـير مشـيدة.
بعـد أن تنهـي أمنـا التحضـير ليـومِ الغـد، نجلـس ثلاثتنـا لوجبـة الفـول التـي لم نعـرف سـواها أبـداً، نـزدرد اللقـمات في صمـتٍ كآلات صـماء، نـشرب مـاء القلـة الطينيـة وتضجـع أمـي عـلى جنبهـا، ليـس بينهـا والـتراب إلا خيشـة جـاءت مـن ديارهـا تحمـل شـيئًا مـن الأرز أو السـكر، نرقـد في حجـر أمـي، مـن فوقنـا السـماء الصافيـة والقمـر والنجـوم الزواهـر، تحـكي لنـا عـن الغـول والعنقـاء، القمـر أمـسى رابعنـا، مـن أهـل الـدار، و النجـوم كالـزوار يختفـون حـين يطـل القمـر.
بـلا مقدمـات جـاءت ثلـة مـن الرجـال وآليـات ضخمـة وشرعـوا يحفـرون تجويفـا خرافيًـا في قطعـةِ الأرض الشَّـاغرة جوارنـا، ظللنـا نرقبهـم في تَوّجـس وَحـيرة، ثـم طمروهـا بالسـيخ والأسـمنت والرمـل والحصـا، تسـاءلنا لمـاذا حفروهـا ولمـاذا طمروهـا. بعدهـا بقليـل أخـذ بنيانهـم يرتفـع فـوق الأرض شـيئاً فشـيئاً، ظللنـا نتابـع تصاعـده الوئيـد نحـو السـماء مدهوشـين وإزدادت دهشـتنا حـين أخَلـف القمـر موعـده، سـهرنا نرقـب طلوعـه ولكـن أكتشـفنا أن البنـاء الجديـد قـد حجبـه إلى الأبـد داهمنـا النـوم ولمـا نقـض وَطَـرا.
امتـلأت غيظـاً وتمنّيـت لـو يسـتطيع القمـر أن يحـط رحالـه بيننـا ويضعضـع هـذا البنـاء الخـرافي، كَظَمـت غيظـي.
ذات يـوم قادتنـا خطانـا لمـكان مـا وسـط الحـي، جمـع مـن النـاس يشـاهدون فيلـما عـلى شاشـة كبـيرة، تسـللنا بـين الأقـدام وجلسـنا عـلى الأرض، إنهـا الحـرب، الجنـود والسـلاح

ودبابات تصلي المدينة حمماً لاهبة فتتداعى العمائر والبنايات وتتساوى بالأرض، صفقت فرحاً وفكرت كيف لي إمتلاك دبابةٍ أدك بها هذا البناء الذي حرمنا لذة الأنس مع القمر. عزمت أمراً و مضيت.

* * *

أحَد الباعة المتجولين نثر كنانته أمامنا يوماً، خفق قلبي بشدة حين رأيت بين متاعه دبابةٌ، سألته عن ثمنها فصدمتني إجابته، عدت للبيت ساهماً. كلما جلسنا في حجر أمي تحكي لنا قصص الحب الخرافية التي لا تنقضي أفتقد القمر، أحدق تلقاء الشرق فيصطدم بصري بحوائط المبنى الذي نبت كالشيطان بيني وبين القمر.
أتناوم حتى إذا ما غفت أمي وأختي أتسلل إلى مستودع أمي وأختلس عملة معدنية، حفرت حفرت أودع فيها ما أختلس كل ليلة، حتى إذا ما أمتلأت كفي بالعملات طرحتها أمام البائع المتجول، عدت مزهوًا أحمل دبابتي التي كلفني ثمنها فض بكارة براءتي، حين عادت أمي لقيتها فرحاً وقلت لها: الليلة سيأتي القمر والنجوم ليسهروا معنا بعد المغيب، ربتت على رأسي ذي الشعر الأجعد الخشن وتبسمت.
جلست أرقب مسار الشمس أنتظر المغيب، أحضرت دبابتي وأدعتها تجويفاً في الأرضِ يقيها النيران المعاكسة، حشوت جوفها بالدانات والبارود وطفقت أقصف وأقصف وأقصف، مع كل قذيفة يتداعى البناء شيئاً فشيئاً حتى

تداعـى كلـه فـوق الـتراب، مـن بـين الغبـار واللهـب والدخـان المتصاعـد وأنـا ألهـث وألهـث أطـل القمـر الضحـوك البسـام مـن عليائـه كعـروس في كامـل بهائهـا حولـه النجـوم عقـدًا إنفـرط ناظمـه، ليلتهـا بِـتّ أضاحكـه حتـى مطلـع الفجـر، حـين توسـدت ذراع أمـي إلى جـوار أختـي، نـزل القمـر مـن عليائـه، رَبَـتّ فـوق شـعري الأجعـد الخشـن، إحتوانـا القمـر فنمنـا، ونـام.

سيـــــــرة ذاتيـــــــة

عثمان أحمد حسن

الميلاد ٣٦٩١ م

كاتب و رحالة ومترجم

رئيس نادي القصة السـوداني

الأمين العـام للإتحاد العربي لأندية القصة والسرد

صدر له:

حواشي الغوايـة - مجموعة قصصية- طبعتان

ليالي سـخريار - حكايات ساخرة

أسـفار إسـتوائية- أدب رحلات، فائز بجائزة إبن بطوطة للرحلة المعاصرة ٢٠١٩ م